بإرادة الإنسان . إنّ هذا المعنى عبّر عنه فى الآية الكريمة القول : ﴿ وما يكون لنا أن نعود فيها إلاّ أن يشاء الله ربّنا ﴾ كما عبّر عنه قوله تعالى فى سورة الأنفال[1] : ﴿يا أيّها الّذين آمنوا استجيبوا لله وللرّسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أنّ الله يحول بين المرء وقلبه وأنّه إليه تحشرون ﴾ إنّ الإنسان لا يستطيع أن يؤمن أو يكفر إلاّ بإرادة الله تعالى . وإنّ لسان الحال بشأن آية سورة الأعراف يقول فى حقّ المؤمنين إنّهم حريصون على الإيمان وإنّهم - وهم الّذين يفعل بهم مالك الملك ما يشاء - لا يستطيعون أن يبقوا على الإيمان إلاّ إذا أراد الله تعالى بقاءهم عليه . والمعنى أنّ الله سبحانه وتعالى الّذى لا يُسْأل عمّا يفعل وهم يُسْألون لو كتب عليهم الشّقاوة والكفر فإنّهم لن يستطيعوا لشيءٍ من ذلك دفعاً . إنّ علم ما كان وما هو كائنٌ وما سيكون عند الله تعالى الّذى ليس للزّمن علاقةٌ بعلمه جلّ وعلا . وفى هذا المعنى جاء القول فى الآية الكريمة : ﴿ وسع ربّنا كلّ شيءٍ علمًا ﴾ والمعنى : أحاط ربّنا بعلم كلّ شيء . ولا يخفى دور القول : ﴿ ربّنا ﴾ مرّتين اثنتين فى الدّلالة على تربية الله تعالى عباده بالنّعم والآلاء فيا له من جرمٍ عظيمٍ أو خطبٍ جسيم ذلك الّذى أغضب الرّبّ الرّحيم جلّ وعلا .

وفى مقابل إحاطة الله تعالى علماً بكلّ شيءٍ دليلَ قدرة الله تعالى المطلقة ثمّة العجز المطلق من العباد فى المقابل وهو ما اعترف به المؤمنون وأعلنوا عنه فى القول: ﴿ على الله توكّلنا ﴾ ولا يخفى دور لفظ الجلالة . ﴿ الله ﴾ فى الدّلالة على العموم ، وذلك فى مقابل دلالة لفظ الرّبّ على الخصوص . وإنّ لسان حال المؤمنين يدعو الكافرين إلى اهتبال الفرصة ، وأخذ نصيبهم من التّوكّل على الله بإسلام الوجه لله تعالى ، وحظّهم من تربية الله تعالى بنعمه وآلائه ، وفى مقدّمتها الحياة الطّيّبة فى الأولى والآخرة .

وفى حال إصرار الملأ الّذين كفروا على عتوّهم واستكبارهم لا يملك المؤمنون إلاّ

---

(١) الآية ٢٤ .

أن يجري على لسانهم القول الّذى ختمت به الآية الكريمة : ﴿ ربّنا افتح بيننا وبين قومنا بالحقّ وأنت خير الفاتحين ﴾ يقول : احكم بيننا وبينهم بحكمك الحقّ الّذى لا جور فيه ولا حيف ولا ظلم ولكنّه عدل وحقّ : ﴿ وأنت خير الفاتحين ﴾ يعنى خير الحاكمين(١) .

وإنّ من ألطف ما يجمل التّنويه والإشارة إليه مجيء لفظ الجلالة : ﴿ الله ﴾ أربع مرّات فى الآية الكريمة ومجيء لفظ الرّبّ ثلاث مرّات . لقد جاءت صيغة الرّفع : ﴿ ربّنا ﴾ مرّتين اثنتين . وصيغة النّداء : ﴿ ربّنا ﴾ بمعنى يا ربنا ، مرّةً واحدة .

وإنّ من ألطف ما يجمل التّنويه به والإشارة إليه دلالة لفظ الجلالة : ﴿ الله ﴾ على العموم ، ودلالة لفظ الرّبّ على الخصوص . إنّ كلاً من الاسمين للذّات العليّة قوّةٌ لمعانى العموم والخصوص فى الآية الكريمة .

وإنّ لفظ ﴿ خير ﴾ ذى العلاقة الوثيقة بالقلب أو بالعاطفة فى القول : ﴿ ربّنا افتح بيننا وبين قومنا بالحقّ وأنت خير الفاتحين ﴾ قوّةٌ لمعنى الخصوص الّذى يفيده لفظ الرّبّ . إنّ المؤمنين المستضعفين شديدو الحاجة للخير الّذى يثبّت أفئدتهم ويشدّ من أزر قلوبهم . وقد جاء فى سورة هود(٢) على لسان شعيبٍ عليه السّلام خطاباً لقومه قوله تعالى : ﴿ ويا قوم اعملوا على مكانتكم إنّى عامل . سوف تعلمون من يأتيه عذابٌ يخزيه ومن هو كاذب . وارتقبوا إنّى معكم رقيب ﴾ .

وأصرّ الملأ الّذين كفروا واستكبروا على الصّدّ عن سبيل الله تعالى وعلى الاستهزاء واستعجال العذاب . وإلى الصّدّ عن سبيل الله تعالى أشارت .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٩ / ٣ وانظر مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « فتح » ٣٧٠ .

(٢) الآية ٩٣ .

الآيــة رقــم (٩٠)

قال تعالى : ﴿ وقـال الملأ الّذيـن كفـروا مـن قومـه لئـن اتّبعتـم شـعيبًا إنّكـم إذًا لخاسرون ﴾ .

يقسم الملأ الّذين كفروا من قوم شعيبٍ عليه السّلام فى مخاطبتهم للمؤمنـين فعـلاً بشعيبٍ عليه السّلام وللّذين يصحّ إيمـانهم مستقبلاً مـن الّذيـن يدرسـون الأمـر مـن جوانبه ويوشكون على الالتحاق بركب المؤمنين بأنّهم لئن اتّبعوا شعيبًا عليه السّـلام إنّهم إذًا لخاسرون . بل إنّ هؤلاء المـلأ تطـاولوا علـى شـخص شـعيبٍ عليـه السّـلام واستعجلوا العذاب واستهزءوا به على نحو ما يتبيّن مـن هـذه الآيـات الكريمـات مـن سورة الشّعراء[1] قال تعالى : ﴿ قالوا إنّما أنت من المسـحّرين . ومـا أنـت إلاّ بشـرٌ مثلنـا وإن نظنّـك لمـن الكـاذبين . فأسـقط علينـا كِسَـفًا مـن السّـماء إن كنـت مـن الصّادقين . قال ربّى أعلم بما تعملون . فكذّبوه فأخذهم عذاب يوم الظُّلّة . إنّه كان عذاب يومٍ عظيم ﴾ والظّلّة هي سحابةٌ أظلّتهـم بعـد حـرٍّ شـديد أصـابهم فـأمطرت عليهم نارًا فاحترقوا[2] وأكثر ما تُقال الظُّلّة فيما يُستَوْخَم ويكره[3] جاء فـى سـورة الأعراف[4] قوله تعالى : ﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنّـه ظلّـةٌ وظنّـوا أنّـه واقـعٌ بهـم خذوا ما آتيناكم بقوّةٍ واذكروا ما فيه لعلّكـم تتّقـون ﴾ وجـاء فـى سـورة البقـرة[5] قوله تعالى : ﴿ هل ينظرون إلاّ أن يأتيهم الله فى ظُلَلٍ من الغمـام والملائكـةُ وقُضِـى الأمر . وإلى الله تُرْجَعُ الأمور ﴾ .

وبالإضافة إلى عذاب الظُّلّة هنالك الرّجفة فإلى .

---

(١) الآيات ١٨٥ ـ ١٨٩ . (٢) الجلالين .

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « ظلل » ٣١٤ .

(٤) الآية ١٧١ . (٥) الآية ٢١٠ .

الآيـــة رقـــم (٩١)

قال تعالى : ﴿ فأخذتهم الرّجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين ﴾ .

هذه الآية الكريمة الّتى تتحدّث عن عذاب الكافرين من قوم شعيبٍ عليه السّلام هي ذات الآية الكريمة الثّامنة والسّبعين الّتى تتحدّث عن عذاب الكافرين من ثمود قوم صالحٍ عليه السّلام . إنّ كلاًّ من الفريقين قد أخذته الزّلزلة الشّديدة فأصبحوا فى دارهم جاثمين على الرّكب هامدين ميّتين . وقد اجتمع إلى الزّلزلة فى حقّ قوم شعيبٍ عليه السّلام عذاب يوم الظّلّة والسّحابة الّتى أظلّتهم وأمطرت عليهم نارًا ، كما اجتمع إلى الزّلزلة فى حقّ قوم صالحٍ عليه السّلام الصّاعقة الّتى أخذتهم وهم ينظرون. والصّاعقة إنّما تخرج بإذن الله تعالى من الظُّلّة أي السّحابة الّتى تُظِلّ القوم.

وبحلول العذاب بالملأ الّذين كفروا واستكبروا تأكّد أنّهم هم الخاسرون وليس القوم المؤمنين . وهذا المعنى بيّنته .

الآيـــة رقـــم (٩٢)

قال تعالى : ﴿ الّذين كذّبوا شعيبًا كأن لم يَغْنَوْا فيها . الّذين كذّبوا شعيبًا كانوا هم الخاسرين ﴾ .

دمّر الله سبحانه وتعالى على الملأ الّذين كذّبوا شعيبًا عليه السّلام تدميرًا حتّى كأنّهم لم يَغْنَوا فى مدينة مدين ولم يعيشوا فيها وقتًا من الأوقات . وهكذا تتمّ إبادة الكافرين من قوم شعيبٍ عليه السّلام كما تمّت إبادة الكافرين من قوم نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ عليهم جميعًا صلوات الله وسلامه . وفى مقابل تدمير الله تعالى القوم الكافرين نجّى الله تعالى المؤمنين وبذلك تأكّد أنّ الخاسرين هم الّذين كذّبوا شعيبًا عليه السّلام كما بيّنت الآية الكريمة وليس الّذين اتّبعوه عليه السّلام ، خلافًا لزعم القوم الكافرين وهذه آخر آيات القسم فإلى .

الآيـــة رقـــم (٩٣)

قال تعالى : ﴿ فتولّى عنهم وقال يا قوم لقـد أبلغتكـم رسـالات ربّـى ونصحـت لكم فكيف آسى على قومٍ كافرين ﴾ .

بما أنّ شعيبًا عليه السّلام قد أنجاه الله تعالى والّذين آمنوا معه وأهلـك الملأ الّذيـن كفروا من قومه فذلك معناه أنّه عليه السّلام قد تولّى عن قومه وأعرض بعد أن يئس عليه الصّلاة والسّلام من إيمانهم ، خاصّةً بعد أن استعجلوا العذاب واسـتهزءوا بـه . وبما أنّ الرّجفة قد أخذت الكافرين أجمعين من قوم شعيبٍ عليه السّلام فذلك معنـاه أنّ شعيبًا عليه السّلام قد تولّى عن قومه وأعرض بعـد هلاكهـم . إنّـه عليـه الصّـلاة والسّلام يقول للكافرين بعد الهلاك ـ وقبله ـ لقد أبلغتكم رسالات ربّى جلّ وعـلا الّتى بعثنى بها وبعث كلّ المرسلين ونصحت لكم وأخلصت لكـم النّصـح فـأصررتم على الكفر والاستكبار حتّى أخذكم العذاب فكيف آسى وأحزن على قومٍ كـافرين بالله تعالى ولم يحقّقوا الغاية الّتى خلقهم الله تعالى من أجلها وهي إفراده جـلّ وعـلا بالعبادة .

ومن البيّن مجيء لفظة رسالات فـى صيغـة الجمـع لأنّهـا رسـالات كـلّ المرسـلين والنّبيّين ، ومن البيّن أنّ شعيبًا عليه السّلام يشير إلى بعـض مقوّمـات الدّاعـى إلى الله تعالى ومهمّاته . إنّه يبلّغ رسالة الله تعالى الّتى ائتمنه جـلّ وعـلا علـى أدائهـا بنصـحٍ وأمانة .

وشعيبٌ عليه السّلام موصوفٌ بأنّه خطيب الأنبياء عليهم السّلام لحسـن مراجعـة قومه[1] .

---

(١) نظم الدّرر ٧ / ٤٥٩ .

[١٢]

« سنّة الله تعالى فى الكافرين الفاسقين وفى المؤمنين المتّقين »

الآيـــات (٩٤ ـ ١٠٢)

وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ
أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ
بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ
ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾
وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ
مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟
يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا
وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا
ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ
مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ
يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم
بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾
تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم
بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ
كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا
لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ
﴿١٠٢﴾

قصّ الله سبحانه وتعالى على التّفصيل فى الآيات الكريمات السّابقات من أنباء كوكبةٍ من المرسلين مع أقوامهم ومصير المكذّبين منهم بقصد تثبيت فؤاد المصطفى ﷺ والمؤمنين فى تلك الفترة المكّيّة المبكّرة من فجر الإسلام . وللقصد ذاته يقصّ الله سبحانه وتعالى على الإجمال فى آيات هذا القسم من أنباء النّبيّين والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . وبذلك تشمل السّورة الكريمة النّبيّين الّذين ذكر الله سبحانه وتعالى أسماءهم والنّبيّين الّذين لم يذكر الله سبحانه وتعالى أسماءهم. وإنّ الآيتين الكريمتين الأوليين المجملتين تفصّل معناهما الآيات الكريمات الأربع ٤٢ ـ ٤٥ من سورة الأنعام . وممّا يلفت النّظر فى مجال المقارنة بين الآيات الكريمات مجيء القول : ﴿ لعلّهم يتضرّعون ﴾ بفكّ الإدغام فى آية سورة الأنعام حيث الكلام على التّفصيل ومجيء القول : ﴿ لعلّهم يضّرّعون ﴾ بالإدغام فى آية سورة الأعراف . وكلٌّ من الفكّ والإدغام متمشٍّ مع التّفصيل والإجمال .

إنّ الآية الكريمة الأولى تبيّن فى أسلوب القصر أنّ ربّ العزّة ما أرسل فى قريةٍ من نبيٍّ إلاّ أخذ أهلها بالبأساء من فقرٍ وجدبٍ وشدّةٍ وما إلى ذلك وبالضّرّاء من مرضٍ وسقمٍ ووجعٍ وما إلى ذلك لعلّهم يتذلّلون لله تعالى ويخلصون فى الدّعاء ويحقّقون أمر الله تعالى لهم فى الآية الكريمة الخامسة والخمسين من السّورة الكريمة فى القول : ﴿ ادعوا ربّكم تضرّعًا وخُفْية ﴾ وبدلاً من أن يتضرّعوا قست قلوبهم وزيّن لهم الشّيطان الرّجيم والنّفس الأمّارة بالسّوء ما كانوا يعملون ففتح الله تعالى لهم أبواب كلّ النّعم والخيرات وبدّل جلّ وعلا مكان السّيّئة الحسنة حتّى كثروا وكثر ما لهم . إنّهم لم يستفيدوا من إمهال الله تعالى لهم كي يعودوا إلى جادّة الصّواب . وإنّهم لم يفطنوا إلى أنّ الله سبحانه وتعالى يختبرهم بالخير بعد الشّرّ فتنةً ويبلوهم بالحسنة بعد السّيّئة ابتلاءً فقالوا : إنّ ما مسّنا من خيرٍ وشرّ هو ما مسّ

آباءنا من قبل من خيرٍ وشرّ لأنّ الدّهر تاراتٌ وتارات . إنّ القوم حينما أصرّوا على كفرهم وصدّهم عن سبيل الله تعالى واستهزائهم أخذهم الله بغتةً وهم لا يشعرون بسبب تبلّد أحاسيسهم ومشاعرهم إلى الحدّ الّذى يستهزئون معه برسل الله تعالى وبالعذاب حتّى حينما يحدّد لهم رسل الله تعالى موعده . ولمّا كان الهدف من القصص القرآنيّ الاعتبار بما حلّ بالمكذّبين السّابقين من عذاب من أجل الإيمان وعمل الصّالحات فقد تحوّل السّياق إلى تبيين ثواب المؤمنين المتّقين فى الدّنيا قبل الآخرة وذلك بفتح الله تعالى بعد انغلاق أبواب السّماء بالماء المنهمر ابتداءً وأبواب الأرض بالطّعام الوفير ابتداءً . وبما أنّ أهل القرى كذّبوا فقد أخذهم الله تعالى بما كانوا يعملون من سيّئاتٍ ويأتون من فواحش . ويبيّن السّياق بعض صور غفلة القوم وينعى عليهم بلادة الإحساس إلى حدّ أمنهم مكر الله تعالى خير الماكرين . إنّهم يأتون الفواحش ليلاً ونهارًا ، فى أوقات النّوم والرّاحة وفى أوقات العمل والكدح . أفأمن أهل القرى المكذّبون الغافلون أن يأتيهم عذاب الله تعالى ليلاً وهم نائمون آمنون ؟ أو أمن أهل القرى أن يأتيهم عذاب الله تعالى نهاراً فى أوضح أجزائه وأكثرها ملاءمةً للعمل والجدّ وذلك وقت الضّحى وهم يلعبون ؟ أفأمنوا مكر الله تعالى أن يأتيهم ليلاً وهم نائمون نهارًا وهم قائلون نائمون مستريحون بعد نصف النّهار أو وهم يلعبون فى أوقات العمل وبخاصّةٍ فى وقت الضّحى حينما تكون النّفوس أكثر إقبالاً على العمل والأجسام أكثر استعدادًا للأعمال الجادّة ؟ : ﴿ فلا يأمن مكر الله إلاّ القوم الخاسرون ﴾ .

وتأكيداً لوجوب أخذ العبرة من هذه الدّروس القرآنيّة يسأل السّياق الغافلين فى كلّ زمانٍ ومكان الّذين يرثون الأرض من بعد أهلها الّذين دمّر الله تعالى عليهم : ألم يتبيّنوا بعد كلّ هذا الحديث أنّه جلّ وعلا لو يشاء أصابهم بذنوبهم وإصرارهم على إتيانها ؟ إنّهم منعوا نور الهداية أن يتسلّل إلى قلوبهم فعميت بصائرهم وقلوبهم، وإنّهم حالوا بين آذانهم وبين أن تقوم بوظيفتها الرّئيسيّة بسماع صوت

الحقّ سماع تدبّر فزادهم الله تعالى صممًا إلى صممهم وطبع على قلوبهم وختم عليها فهم لا يسمعون أحسن الحديث سماع وعيٍ وتدبّر وتأمّل .

وتصرّح الآية الكريمة تقريباً بتثبيت فؤاد المصطفى ﷺ فى القول : ﴿ تلك القرى نقصّ عليك من أنبائها ﴾ وتقرّر أنّ الكافرين لم تكن تنقصهم الحجج والبراهين الّتى خصّ الله تعالى بها رسله إليهم إنّما كانوا معاندين فاستمرّوا مكذّبين للرّسل جاحدين للآيات فزاد الله تعالى قلوبهم انصرافًا إلى انصرافها بأن طبع عليها فهم لا يعلمون ولا يؤمنون . ومعنى إصرار الكافرين على كفرهم عدم وفائهم بالعهد المأخوذ عليهم نصًّا وهم فى عالم الذّرّ بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، وضمنًا إذ خصّهم الله تعالى بجملةٍ من المواهب والملكات الّتى تهيّئهم لحمل الأمانة المعروضة على جنس الإنسان . إنّ أكثر النّاس ـ للأسف الشّديد ـ فاسقون خارجون عن الصّراط المستقيم .

الآيـــة رقـــم (٩٤)

قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا فى قريةٍ من نبيٍّ إلاّ أخذنا أهلها بالبأساء والضّرّاء لعلّهم يضّرّعون ﴾ .

اقتضت سنّة الله تعالى ألاّ يعذّب قريةً من القرى أو أمّةً من الأمم إلاّ بعد إرسال نذيرٍ إليها وإصرارها على التّكذيب . وقد تبيّنت فى السّورة الكريمة هذه الحقيقة فى أثناء الحديث عن أقوام نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ وشعيبٍ عليهم السّلام ، كما تتبيّن هذه الحقيقة لاحقًا فى أثناء الحديث عن قوم موسى عليه السّلام كبير أنبياء بنى

إسرائيل . وقد جاء فى سورة الإسراء[١] قوله تعالى : ﴿ وما كنّا معذّبين حتّى نبعث رسولاً ﴾ وجاء فى سورة فاطر[٢] قوله تعالى : ﴿ وإنْ مِنْ أمّةٍ إلاّ خلا فيها نذير ﴾ وبعد حديث السّورة الكريمة عن بعض الأقوام الّذين دمّر الله تعالى عليهم تدميرًا بسبب تكذيبهم رسل الله تعالى إليهم وبذلك تشابه مصيرهم جميعًا ، وفى ذلك تسليةٌ للمصطفى ﷺ وللمؤمنين ، تحوّل الحديث لغاية التّسلية ذاتها وتثبيت الفؤاد عن مجموعةٍ من القرى الظّالم أهلها . وإنّ ذكر بعض النّبيّين على التّفصيل وذكر بعضهم الآخر على الإجمال يذكّرنا بمثل قوله تعالى فى سورة النّساء[٣] : ﴿ ورسلاً قد قصصناهم عليك مِنْ قَبْلُ ورسلاً لم نقصصهم عليك ﴾ وبذلك تشمل السّورة الكريمة كلّ النّبيّين والمرسلين الّذين جاء ذكرهم بصريح الاسم والّذين لم يُصَرَّحْ بأسمائهم . إنّها قد ابتدأت بنوحٍ عليه السّلام أول المرسلين وإنّ من أهدافها تثبيت فؤاد المصطفى ﷺ خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين .

والآية الكريمة الّتى نحن بصددها تقرّر أنّ ربّ العزّة والجلال لم يرسل فى قريةٍ من القرى ومدينةٍ من المدن وأمّةٍ من الأمم مِنْ نبيٍّ ولا رسولٍ فكذّبت إلاّ أخذ الله سبحانه وتعالى أهلها بالبأساء بمعنى شدّة الفقر والفاقة والحاجة ، وبالضّرّاء بمعنى شدّة الأمراض والأسقام والأوجاع لعلّهم يتضرّعون إلى الله تعالى ويتذلّلون ويدعون الله تعالى فى صدقٍ وإخلاص أن يزيل الكرب ويكشف الغمّ .

والعجيب فى أمر المكذّبين فى كلّ زمانٍ ومكانٍ وحتّى يوم النّاس هذا أنّهم لا يفهمون أنّ البأساء والضّرّاء من الله تعالى بسبب تكذيبهم إنّما يفهمون أنّ كلّ ذلك من مصادفات الدّهر فهو تارةً يسىء وتارةً أخرى يحسن . وهذا المعنى نتبيّنه من .

---

(١) الآية ١٥ . (٢) الآية ٢٤ . (٣) الآية ١٦٤ .

الآيـــة رقـــم (٩٥)

قال تعالى : ﴿ ثمّ بدّلنا مكانَ السّيّئةِ الحسنةَ حتّى عَفَوْا وقالوا قد مسَّ آباءَنا الضّرّاءُ والسّرّاءُ فأخذناهم بغتةً وهم لا يشعرون ﴾

من البيّن أنّ معاني هذه الآية الكريمة ومعاني الآية الكريمة السّابقة قد فصّلتها هذه الآيات الكريمات من سورة الأنعام[1] قال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا إلى أممٍ من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضّرّاء لعلّهم يتضرّعون . فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرّعوا ولكن قست قلوبهم وزيّن لهم الشّيطان ما كانوا يعملون . فلمّا نسوا ما ذُكّروا به فتحنا عليهم أبواب كلّ شيءٍ حتّى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتةً فإذا هم مبلسون . فَقُطِعَ دابرُ القوم الّذين ظلموا . والحمد لله ربّ العالمين ﴾ .

والآية الكريمة الّتي نحن بصددها تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى قد طال أخذه للقوم بالبأساء والضّرّاء على نحو ما يُفْهَم من حرف العطف : ﴿ ثمّ ﴾ الّذي يدلّ على التّرتيب مع التّراخي من أجل أن يفهموا أنّ ما أصابهم من ضرّ هو من الله تعالى بقصد أن يتوبوا إلى الله تعالى توبةً نصوحًا . وحينما تأكّد غباء القوم وحمقهم وكفرهم بدّل الله سبحانه وتعالى مكان السّيّئةِ بالبأساء والضّرّاء الحسنَةَ بالصّحّة السّابغة ، والمطر الغزير ، والخير الكثير ، والمال الوفير ، والرّزق الواسع . وكما طال زمن الضّرّاء طال زمن السّرّاء حتّى عفَوْا وكَثُروا وفاض ما لهم وغزر نسلهم وقال كلّ واحدٍ منهم ، إن لم يكن بلسان المقال فبلسان الحال ما جرى على لسان قارون

---

(١) الآيات ٤٢ ـ ٤٥ .

فى سورة القصص[1] : ﴿ إنّما أوتيته على علمٍ عندى ﴾ و لم يخطر ببال واحدٍ من هؤلاء الحمقى أنّ السّرّاء الّتى غمرتهم إنّما هي استدراجٌ من الله تعالى لهم وإمهالٌ لهم كي يؤمنوا ويسيروا فى الصّراط المستقيم وإلاّ كان أخذ الله تعالى لهم شديدًا وعذابه أليما . والعجيب فى حال هؤلاء المكذّبين الكافرين أنّ أنبياء الله تعالى ورسله حينما يذكّرونهم بأيّام الله تعالى وينبّهونهم إلى أنّ الله سبحانه وتعالى كما ابتلاهم بالبأساء والضّرّاء كي يعودوا إليه جلّ وعلا ابتلاهم بالسّرّاء كي يشكروا لله تعالى نعمه وآلاءه بالإيمان والإذعان يقولون إنّ الضّرّاء والسّرّاء إنّما هي من الدّهر فهو تاراتٌ وتارات : ﴿ وقالوا قد مسّ آباءَنا الضّرّاء والسّرّاء ﴾ إنّ أولئك السّفهاء يرون أنّ ما حلّ بهم من ضرّاء وسرّاء هو من جنس ما مسّ آباءهم وأجدادهم من تقلّبات الدّهر بين ضرّاء وسرّاء وهكذا دواليك .

وحينما لم يفطن القوم للابتلاء بالضّرّاء والسّرّاء و لم يستفيدوا من فترة الإمهال هذه ، و لم يكفّوا من غيّهم و لم يرعووا إلى الرّشد ، وحينما أصرّوا على كفرهم وتكذيبهم واستهزائهم أخذهم الله تعالى الكبير المتعال فجأةً أخذ عزيزٍ مقتدر فغدوا كأمس الدّابر وقال المؤمنون : ﴿ الحمد لله ربّ العالمين ﴾ قال تعالى : ﴿ فأخذناهم بغتةً وهم لا يشعرون ﴾ .

والمعروف أنّ الأخذ فى اللّغة يرتبط باليد أساسًا ويرتبط به قوّة الأخذ . والمعروف كذلك أنّ الشّعور ذو علاقةٍ بالشّعَر الملازم لجسد الإنسان . إنّ الإنسان لا يستطيع أن يجهل شعر جسده أو ينكره ، وإنّ الإنسان الخليق بهذا الاسم لا يستطيع فى مجال المحسوسات ألاّ يشعر بما يرتدى من شِعار ، وهو ذلك النّوع من الثّياب الّذى يلامس شعر جسده ولذلك أطلق عليه لفظ الشّعار . ومن هو الّذى لا

---

(١) الآية ٧٨ .

يشعر بأنّه يرتدى شيئًا وهو الّذى عليه شعاره ؟ إنّه بليد الإحساس . وإنّ أولئك الكافرين المكذّبين المستهزئين انتهى بهم الحال فى مجال تبلّد إحساسهم وشعورهم فى مجال المعنويّات باستبعاد العذاب إلى مثل حال متبلّد الشّعور فى مجال المحسوسات إلى الحدّ الّذى لا يشعر معه أنّه يرتدى شعارًا ! إنّ الكافرين المكذّبين المستهزئين رغم تهديد النّبيّين لهم بمجيء العذاب وربّما رغم تحديد موعده ليس عندهم أدنى شعورٍ باحتمال وقوع العذاب . وليس وراء هذه البلادة من الشّعور وراء . وإنّ الدّليل الأكيد على بلادة شعور القوم أنّ المتأخّرين لا يستفيدون مطلقًا ممّا حلّ بالمكذّبين السّابقين على نحو ما تبيّن من مصير المكذّبين لأنبياء الله تعالى الّذين جاء ذكرهم وفق هذا النّسق فى هذه السّورة الكريمة وفى غيرها ، كسورة هود الّتى جمعت بين إبراهيم وابن أخيه لوطٍ عليهما السّلام والّتى جاء فيها على لسان شعيبٍ عليه السّلام قوله تعالى[1] : ﴿ ويا قوم لا يجرمنّكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوحٍ أو قوم هودٍ أو قوم صالح . وما قوم لوطٍ منكم ببعيد ﴾ ثمّ تحدّثت السّورة الكريمة عن موسى عليه السّلام .

وإذا كان الأخذ الأليم الشّديد مصير المكذّبين فما مصير المؤمنين المتّقين ؟ نتبيّن المصير فى .

الآيــة رقــم (٩٦)

قال تعالى : ﴿ ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتّقَوْا لفتحنا عليهم بركاتٍ من السّماءِ والأرضِ ولكن كذّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾ .

---

(١) سورة هود ٨٩ وانظر الآيات الكريمات ٤٢ ـ ٤٤ من سورة الحجّ .

من أهمّ ما يلفت الانتباه فى الآية الكريمة مجيء القول : ﴿ أهل القرى ﴾ وهو قولٌ يذكّرنا بأولى آيات القسم . قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا فى قريةٍ من نبيٍّ إلاّ أخذنا أهلها بالبأساء والضّرّاء لعلّهم يضّرّعون ﴾ وإنّ النّصّ على الأهل فى الآيتين الكريمتين ينبّه على أنّ المراد أهل القرية فى الآية الكريمة الرّابعة من السّورة الكريمة . قال تعالى : ﴿ وكم من قريةٍ أهلكناها فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون ﴾ بدليل الحديث عن أهل القرية فى الآية الكريمة الخامسة التّالية . قال تعالى : ﴿ فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسُنا إلاّ أن قالوا إنّا كنّا ظالمين ﴾ والمراد بأهل القرية أهل المدينة. ويتّصفون بالاجتماع فى موضعٍ واحد وبالاستقرار . إنّ القرية اسمٌ للموضع الّذى يجتمع فيه النّاس وللنّاس جميعاً ويستعمل فى كلّ واحدٍ منهما[1] ويقال : مَدَن بالمكان إذا أقام به ومنه المدينة[2] وممّا يلاحظ على سكّان المدينة أو القرية أنّ حظّهم موفورٌ من القدرة على الإدراك والفهم ممّا يعنى أنّهم فى مجموعهم مظنّة الفهم عن رسول الله تعالى إليهم وإدراك نبل المقصد من بعث النّبيّ إليهم . وإنّه بالمقارنة بين عدد المرّات الّتى جاء فيها لفظ القرية فى القرآن الكريم بالقياس إلى المدينة يتبيّن أنّ لفظ القرية جاء أكثر من لفظ المدينة . ولمّا كان لفظ القرية فى استعمالنا يفيد الأخذ بنصيبٍ معقولٍ ومحدودٍ من أسباب الحضارة فى حين نستعمل لفظ المدينة ونحن نريد الأخذ بنصيبٍ أكبر من أسباب الحضارة إلى حدّ التّرف أحياناً فإنّا ربّما فهمنا من استعمال لفظ القرية فى القرآن الكريم بأكثر من لفظ المدينة ما يلاحظ على القرى الّتى يبعث الله تعالى منها أنبياءه ورسله وعلى المدن أنّها تقع فى العادة وسطاً بين ترف المدينة وجفاء البدو . إنّ ربّ العزّة يصطفى أنبياءه ورسله من أهل القرى الّذين لم يصلوا إلى درجة التّرف بسبب عجز هذا الفريق من النّاس عن تحمّل شظف العيش وتبعات الرّسالة ، والّذين لم يغرقوا فى البداوة بسبب عجز هذا الفريق من

---

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : ﴿ قرى ﴾ ٤٠٢ .

(٢) انظر لسان العرب : ﴿ مدن ﴾ .

النّاس عن فهم مدلول الرّسالة ومعنى بَعْث النّبيّين والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . ومن هنا كان رفض أهل القرى اتّباع رسل الله تعالى إليهم والنّبيّين ليس بسبب قصور إدراكهم وليس بسبب قصور آيات النّبيّين والمرسلين ولكن بسبب العناد ، جاء في هذا المعنى في سورة النّمل[1] عن قوم موسى عليه السّلام قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ فلمّا جاءتهم آياتنا مبصرةً قالوا هذا سحرٌ مبين . وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوًّا . فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ .

وحينما يكفر أهل القرى ويصرّون على التّكذيب يأخذهم الله تعالى بالبأساء والضّرّاء ، ومن مظاهر ذلك منع الغيث الّذي ينجم عنه شحّ الماء وقد قال عزّ من قائل[2] : ﴿ وجعلنا من الماء كلّ شيءٍ حيٍّ أفلا يؤمنون ﴾ وهذا المنع للقطر من ربّ العباد عن المكّذبين نوعٌ من أنواع البأساء والضّرّاء بقصد أن يؤمنوا ويتّقوا وإلاّ أخذهم الله تعالى أخذ عزيزٍ مقتدرٍ كما أخذ المكذّبين السّابقين بما كانوا يكسبون من ذنوبٍ وآثام .

وكما كان منع القطر عن المكذّبين ، وكأنّ السّماء رتقاء ، من مظاهر ابتلاء الله تعالى بالشّدّة كي يصدّقوا ويعود الغيث والخصب ، كان إرسال الله تعالى السّماء مدراراً من مظاهر إنعام الله تعالى على المؤمنين المتّقين بالخير العميم . إنّ الآية الكريمة الّتي نحن بصددها تقرّر أنّ أهل القرى لو أنّهم آمنوا برسول الله تعالى إليهم واتّقوا النّار بعمل الصّالحات واجتناب السّيّئات إلى أن تحلّوا بالتّقوى ، الوجه الآخر للإحسان بأن تعبد الله تعالى كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك ، لفتح الله تعالى عليهم بعد انغلاقٍ بركاتٍ من السّماء بالقطر في المقام الأوّل ومن الأرض بالنّبات في المقام الأوّل ، فتحقّق لهم الشّراب الهنيء والطّعام المريء . وليس الطّعام والشّراب إلاّ الرّمز للنّعيم الّذي يتقلّب فيه المؤمنون المتّقون بفضلٍ من الله تعالى ونعمة . وبما أنّ أهل القرى كفروا وكذّبوا وعملوا السّيّئات فقد أخذهم الله تعالى

---

(١) الآية ١٣ ، ١٤ .

(٢) سورة الأنبياء ٣٠ .

بما كانوا يكسبون أخذ عزيزٍ مقتدر .

إنّه بشأن المؤمنين المتّقين المنعم عليهم جاء قول الحقّ جلّ وعلا في سورة الأنفال[1] : ﴿ ذلك بأنّ الله لم يك مغيّرًا نعمةً أنعمها على قومٍ حتّى يغيّروا ما بأنفسهم وأنّ الله سميعٌ عليم ﴾ فالله سبحانه وتعالى لا يغيّر نعمته على قومٍ بسلبهم إيّاها وتحويل النّعمة نقمةً حتّى يغيّروا ما بأنفسهم من نعمةٍ بكفرانها ومبادلة إحسان الله تعالى إليهم إساءةً بارتكاب الذّنوب وإتيان الموبقات .

وبشأن أهل القرى المكذّبين يبلوهم الله تعالى بالشّرّ كي يتضرّعوا إليه تعالى ويتذلّلوا ويتوبوا إليه جلّ وعلا توبةً نصوحاً . فإن أساءوا فَهْمَ الابتلاء بالشّرّ ولم يؤمنوا ابتلاهم الله تعالى بالخير بقصد الاستدراج في العمه إن كانوا عمي البصائر ، وبقصد إطالة فترة الإمهال إن كانوا غير ذلك حتّى تزول العَماية عن بصائرهم وينكشف الغطاء عن أبصارهم . ومن أهمّ ما يلاحظ على من أعمى الله تعالى بصائرهم أنّهم لا يستفيدون من فترة الإمهال والإملاء إنّما يزدادون غفلةً وعتوًّا واستكبارًا . وحول هذه المعاني تحدّثت الآيات الكريمات الثلاث التّاليات فإلى .

الآيات رقم (٩٧ - ٩٩)

قال تعالى : ﴿ أفأمن أهلُ القُرَى أن يأتيهم بأسنا بَياتًا وهم نائمون . أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضُحىً وهم يلعبون . أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلاّ القوم الخاسرون ﴾ .

تدور الآيات الكريمات الثّلاث حول الغفلة المتمكّنة من المكذّبين والّتي تزداد بمرور اللّيالي والأيّام تمكّناً ورسوخًا وكأنّ الغفلة تبدأ بالتّسلّل إلى القوم ليلاً ، وكأنّ

---

(١) الآية ٥٣ .

ظلام اللّيل مسعفٌ لهم على إتيان الموبقات ليلاً بالاستخفاء فى حنادسه المظلمة . وبمرور الوقت تستبدّ الغفلة بالقوم وتزداد قلوبهم قسوة ويتمادون فى كشف برقع الحياء وخلع عذاره فلا يتحرّجون أن يأتوا فى وضح النّهار ما كانوا يستحيون من إتيانه نهاراً وبالتالى يأتونه تحت جنح الظّلام ، ليس خوفاً من الله تعالى ولكن حياءً أو خوفًا من عباد الله تعالى . وإلى هذين الفريقين أشارت هذه الآية الكريمة من سورة الرّعد[1] قال تعالى : ﴿ سواءٌ منكم من أسرّ القول ومن جهر به ومن هو مستخفٍ باللّيل وسارِبٌ بالنّهار ﴾ وحينما انحطّ إحساس القوم المتبلّد إلى أحطّ دركٍ تساوى اللّيل والنّهار فى إتيان المنكر وكأنّهم انتهوا من الحضيض فى درك الغفلة إلى درجة الأمن من مكر الله تعالى وكيده ففهموا الإمهال إهمالاً واعتقدوا أنّ الدّهر لا يصيبهم إلاّ بما شاءوا وهم يريدون لأنفسهم الخير وحده . وبما أنّ الشّيطان الرّجيم والنّفس الأمّارة بالسّوء قد جعل كلٌّ منهما المكذّبين يعتقدون أنّ الحياة الدّنيا هي غاية المنى ومنتهى الطّلب فقد نسي القوم الله تعالى ولم يفيقوا إلاّ على هول الصّدمة بأخذ الله تعالى لهم أخذ عزيزٍ مقتدر فتأكّد لهم بعد فوات الأوان أنّهم هم الخاسرون حقًّا .

والآيات الكريمات الثّلاث تبيينٌ للآية الكريمة الرّابعة من السّورة الكريمة . قال تعالى : ﴿ وكم من قريةٍ أهلكناها فجاءها بأسنا بياتًا أو هم قائلون ﴾ .

إنّ الآية الكريمة الأولى تسأل فى أسلوب الاستفهام الإنكاريّ التّقريعيّ التّوبيخيّ أولئك المصرّين على الكفر والتّكذيب والاستهزاء وإتيان الفواحش : أفأمن أهل القرى واطمأنّوا وأيقنوا أن لن يأتيهم عذاب الله تعالى ليلاً وهم نائمون .؟ ما مصدر هذا مثل هذا الأمن وتلك الطّمأنينة حتّى إنّهم لينامون ليلاً ملء جفونهم وكأنّ رسل الله تعالى إليهم لم يحذّروهم من عذاب الله تعالى إن استمرّوا فى غفلتهم وتكذيبهم ومحاربة الله تعالى ورسله . ومن البيّن أنّ الغفلة ترتبط باللّيل أساسًا بسبب ظلمته

---

(١) الآية ١٠ .

وسكون الخلائق فيه ولهذا كان اللّيل بإرادة الله تعالى لباسًا أسود للخلائق وكان النّوم فيه بإرادة الله تعالى سباتًا . ومن البيّن أنّ غفلة القوم عن دعوة رسول الله تعالى لهم إلى الله تعالى زادها اللّيل قوّةً والنّوم شدّةً دليلاً على الاطمئنان واستبعاد العذاب وربّما الاستهزاء به . وهذه الآية الكريمة الّتى تقدّم البيات بمعنى اللّيل[1] تتمشّى مع تقديم الآية الكريمة الرّابعة من السّورة الكريمة البيات على وقت القائلة نهارًا[2] .

ومن البيّن مجيء حرف العطف الفاء الدّالّ على التّرتيب مع التّعقيب فى القول : ﴿ أفأمن أهل القرى ﴾ وكأنّ غفلة القوم الّتى يزيدها اللّيل قوةً غير مرغوبٍ فيها فكيف بغفلة القوم فى وقتٍ آخر لا يقوّى تلك الغفلة ولا يساعد عليها وهو النّهار الّذى جعله الله تعالى معاشًا . وهذا المعنى أفصحت به الآية الكريمة التّالية . ونستطيع بالجمع بين هذه الآية الكريمة الأولى وبين الآية الكريمة الرّابعة من السّورة الّتى تتحدّث عن القائلة بعد حديثها عن البيات أن نقول : إنّ وقت القائلة حينما ينام النّاس نصف النّهار[3] ـ علماً بأنّ المقيل والقيلولة الاستراحة نصف النّهار وإن لم يكن معها نوم ـ[4] إنّ وقت القائلة امتدادٌ للبيات بجامع نوم العرب الّذين نزل القرآن الكريم بلسانهم فى هذين الوقتين ، فى اللّيل الّذى جعل الله تعالى نوم الخلائق فيه سباتًا ، وفى وقت القائلة أو الهاجرة حينما يكاد يهجر بعض النّاس بعضًا فى وقت القائلة الّذى تشتدّ فيه الحرارة فيلجأون إلى النّوم أو إلى مطلق الرّاحة .

وإنّ الآية الكريمة الثّانية الّتى يجيء فيها واو العطف الدّالّ على مطلق الجمع فى القول : ﴿ أو أمن أهل القرى ﴾ وليس حرف الفاء الدّالّ على التّرتيب مع التّعقيب لتسأل هي الأخرى فى أسلوب الاستفهام الإنكاريّ التّقريعيّ التّوبيخيّ أولئك

---

(١) تفسير ابن كثير ٢ / ٢٣٤ . (٢) تفسير الطّبريّ ٨ / ٨٧ .

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « قيل » ٤١٦ ومعجم مقاييس اللّغة « قيل » ٥ / ٤٥ .

(٤) لسان العرب : « قيل » .

المصرّين على الكفر والتّكذيب والاستهزاء وإتيان الفواحش . أو أمن أهل القرى أن يأتيهم عذاب الله تعالى نهارًا فى وقت الضّحى ؟ وهو الّذى يعتبر أشدّ أجزاء النّهار وضوحاً وأقواها شباباً وأكثرها مساعدةً على العمل الجادّ النّافع . والعجيب فى أمر أولئك الغافلين أنّهم يلعبون ويلهون فى ذلك الوقت دليلاً على تمادى القوم فى الغفلة وتحوّلهم من حالٍ سيّيءٍ وهو الغفلة ليلاً ، إلى حالٍ أشدّ سوءاً وهو الغفلة نهارًا ، بل فى أوضح ساعات النّهار وأكثرها قبولاً لملئها بالعمل الجادّ والنّشاط النّافع .

وإنّه بالجمع بين هاتين الآيتين الكريمتين وبين الآية الكريمة الرّابعة من السّورة الكريمة يصحّ ترتيب درجات الغفلة من جهة تحوّلها إلى الأسوأ على النّحو التّالى . النّوم ليلاً . النّوم نهارًا وقت القائلة . اللّعب ضحى . ونستطيع أن نفهم أنّ القوم حينما يلهون ويعبثون ويلعبون وقت العمل الجادّ ضُحىً فإنّهم من باب الأَوْلى والأحرى ينامون ويأمنون عذاب الله تعالى بالنّوم ليلاً ونهارًا . إنّ الغفلة حينما تجلّت فى النّوم ليلاً ونهارًا لم يكتف بها القوم إنّما أصرّوا على إظهارها فى صورةٍ أسوأ وذلك بالإقبال على متع الدّنيا الرّخيصة ضحىً أي فى وضح النّهار ، وإنّ الإقبال على اللّعب يعنى الإدبار عن الجدّ ، وإنّ الإقبال على الدّنيا يعنى الانصراف عن الآخرة .

ونستطيع أن نفهم أنّ القوم يمثّلون الغفلة فى منظرها الأقبح من كلّ منظر حينما يجمعون بين النّوم واللّعب ليلاً ونهارًا . وإلى هذا المنظر الأشدّ قبحًا أشارت الآية الكريمة التّالية الثّالثة .

إنّ الآية الكريمة الثّالثة تنكر على القوم فى أسلوب الاستفهام مطلق أمنهم مكر الله تعالى بإتيان المنكرات والفواحش ليلاً ونهارًا وعلى رءوس الأشهاد دون خوفٍ من الله تعالى أو حياءٍ من عباد الله تعالى . إنّ أولئك الغافلين فهموا إمهال الله تعالى لهم إهمالاً وكذّبوا رسل الله تعالى واستهزءوا بالعذاب واستعجلوه حمقاً وسفهًا ولم

يفطنوا لحظةً من اللّحظات إلى أنّهم محطّ ابتلاء الله تعالى لهم بالخير وفتح أبواب كلّ شيءٍ من أجلهم ، وأنّ الله تعالى يستدرجهم من حيث لا يعلمون . إنّ القوم الّذين تمادوا في الغفلة والكفر والتّكذيب والاستهزاء ، وربّما استعجلوا العذاب ، حينما لم يتبيّنوا أنّ الله سبحانه وتعالى يمكر بهم - وهو جلّ وعلا خير الماكرين - أخذهم الله تعالى بغتة ، وأنزل بهم العذاب الأليم فجأة ، فمضوا كأمس الدّابر وكأنّهم لم يعيشوا يوماً من الأيّام في أماكنهم وما بكت عليهم السّماء والأرض وقيل الحمد لله ربّ العالمين . إنّ أولئك هم الّذين خسروا الدّنيا والآخرة والعياذ بالله . إنّهم خسروا الأولى دار العمل ، وخسروا الآخرة دار الجزاء .

ومن البيّن أنّ ما نصّت عليه الآيات الكريمات السّابقات يصحّ في كلّ المكذّبين السّابقين ، الّذين قصّ علينا القرآن الكريم ذكرهم والّذين لم يقصص . ومن البيّن كذلك أنّ من أهداف الحديث عن المكذّبين السّابقين على التّفصيل أو الإجمال أخذ العظة والعبرة . وإلى هذا الهدف أومأت .

الآيـــة رقـــم (١٠٠)

قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم . ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون ﴾ .

أهلك الله سبحانه وتعالى أهل القرى الّذين قصّ الله تعالى علينا قصصهم في القرآن الكريم على التّفصيل أو الإجمال ، وشاء الله تعالى أن يرث تلك القرى وأرضها آخرون لاحقون فما الّذي كان ينبغي أن يتبيّنه أولئك اللاّحقون الّذين ورثوا الأرض من بعد أهلها ويرثون إلى قيام السّاعة ؟ أن يعتبروا بما حلّ بالمذنبين السّابقين وأن يراقبوا الله تعالى في السّرّ والعلانية وإلاّ كان مصيرهم مشابهاً لمصير المكذّبين السّابقين . إنّ الآية الكريمة في أسلوب الاستفهام الإنكاريّ تسأل أولئك

اللاّحقين الّذين لا يتورّعون عن ارتكاب الذّنوب وإتيان الكبائر : أو لم يهد لهم و لم يتبيّنوا[١] أنّه[٢] لو يشاء الله تعالى لأصابهم على الفور بذنوبهم وأخذهم أخذ عزيزٍ مقتدر ؟ هلاّ اتّعظ اللاّحقون بما حلّ بالسّابقين المستكبرين ؟ وهلاّ انتفعوا من إمهال الله تعالى لهم فارعووا عن جهلهم ؟ وهلاّ تدبّروا القرآن الكريم أم على قلوبٍ أقفالها ؟

وإنّ مجيء جملة : ﴿ يرثون ﴾ فى صيغة الزّمن المضارع الّذى يفيد التّجدّد والاستمرار يعنى اتّجاه الإنكار فى الآية الكريمة إلى كلّ من يصرّ على إتيان الفواحش إلى يوم الدّين . إنّ عليهم أن يستفيدوا من هذه المواعظ القرآنيّة . وعلى الرّغم من آيات الذّكر الحكيم البيّنات والحجج الدّامغات فإنّا نصادف الكثيرين الّذين اتّخذوا القرآن الكريم وراءهم ظهريّا . وإنّ الآية الكريمة تخصّ هذا الفريق العابث من النّاس بالتّذييل : ﴿ ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون ﴾ ومن البيّن مجيء كلٍّ من : ﴿ ونطبع ﴾ و﴿ لا يسمعون ﴾ فى صيغة الزّمن المضارع الّذى يفيد الاستمرار .

وإنّ جملة : ﴿ نطبع ﴾ تقذف إلى الذّهن بجملة : نختم صنوها . ونستطيع ابتداءً أن نفهم أنّ جملة : ﴿ نطبع ﴾ تفيد معنى جملة نختم . جاء فى المفردات[٣] : « الختم والطّبع يقال على وجهين مصدر ختمت وطبعت وهو تأثير الشّىء كنقش الخاتم والطّابع . والثّانى الأثر الحاصل عن النّقش » و« الطبع أن تصوِّر الشّىء بصورةٍ ما كطبع السّكّة وطبع الدّراهم وهو أعمّ من الختم وأخصّ من النّقش . والطّابع والخاتم ما يُطْبَعُ به ويُختَم »[٤] ويصحّ أن نتبيّن الفرق بين الطّبع والختم حينما نتأمّل عمليّة طبع الدّراهم مثلاً . إنّ الطّابع ــ أو السّكة ــ فيه النّقش ، ويوضع المعدن فى الطّابع ، ويدقّ على المعدن فى العادة . أمّا عمليّة الختم فإنّ الخاتم

---

(١) تفسير ابن كثير ٢ / ٢٣٤ .

(٢) الجلالين والجدول فى إعراب القرآن الكريم وصرفه ٥ / ١٩ .

(٣) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « ختم » ١٤٢ .

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « طبع » ٣٠١ .

فى العادة أو الختم هو الّذى يقع على الشّىء المختوم عليه . ويغلب استعمال الخاتم فى الخاتمة أو النّهاية . وحينما نقارن بين عمليّتي الطّبع والختم نتبيّن أنّهما يكادان يكونان فى النّهاية شيئًا واحداً ويقومان بعملٍ واحد وفرق بين الطّابع والخاتم أنّ الطّابع فى عمليّة الطّبع كأنّه الثّابت ، وأنّ الخاتم فى عمليّة الختم كأنّه المتحرّك . ودليلاً على هذه العمليّة الّتى تكاد تكون واحدةً للطّبع والختم يصحّ الاستئناس بالعملين اللّذين نقوم بهما بشأن خطاب البريد . إنّا نختم الخطاب كيلا يخرج شىءٌ ممّا اشتمل عليه وكيلا يدخل فيه شىءٌ غير مرغوبٍ فيه ، كما أنّا نضع الطّابع فى الأساس على أهم أجزاء عمليّة الختم بالغراء غالباً . وتأتى أخيراً عمليّة الختم بخاتم البريد على مكان ختم الخطاب وعلى الطّابع زيادةً فى الاستيثاق وضمان عدم دخول شىءٍ فى الخطاب وعدم خروج شىءٍ منه .

ويُفْهَم من استعمال جملة : ﴿ ونطبع ﴾ أنّ عمليّة الطبع على قلوب المجرمين قد جعلت عدم سماعهم سماع تدبّرٍ ووعيٍ لآي الذّكر الحكيم كأنّه طبيعةٌ وسجيّة والعياذ بالله . ويُفْهم من استعمال جملة : ونختم ، فى مثل هذه المناسبة أنّ عمليّة الختم الّتى تمنع دخول شىءٍ أو خروج شىءٍ فى حقّ المختوم عليه ، تفيد أنّ هذا المصير السّيّئ هو خاتمة المطاف وهو النّهاية الحتميّة لأولئك الّذين أوصدوا كلّ المنافذ الّتى يمكن أن يتسلّل فى أثنائها نور الهدى وصوت الحقّ . وكأنّ عمليّة الختم تفيد ما تفيده عمليّة الطبع من كون رفض الهدى أصبح للقوم طبعاً وسجيّة ولكنّ هذه الفائدة لم تأت من جهة اللّفظ إنّما أتت من جهة المعنى أو ما يُسَمَّى بدلالة الالتزام. وهكذا نتبيّن أنّ عمليّتي الطّبع والختم تؤدّيان فى النّهاية إلى غايةٍ واحدةٍ رغم اختلاف الوسيلة وطريقة الأداء . وتتجلّى عمليّة الختم غايةً فى وضوح الدّلالة بشأن قوله الحقّ جلّ وعلا عن خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين ﷺ فى سورة الأحزاب[1] :

---

(١) الآية ٤٠ وقد درسنا الآية الكريمة ، وهي فى ختم النّبوّة ، فى كتابنا : تأمّلات فى سورة الأحزاب ٣٥٨ ـ ٣٧٥ .

﴿ ما كان محمّد أبا أحدٍ من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النّبيّين . وكان الله بكلّ شيءٍ عليما ﴾ .

إنّ التّذييل : ﴿ ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون ﴾ يقرّر أنّ ربّ العزّة قد زاد انصراف قلوب المجرمين انصرافاً حتّى أصبح عدم سماع آذانهم دعوة الحقّ سماع وعيٍ طبيعةً فيهم وسجيّةً بسبب طبع الله تعالى على تلك القلوب والختم عليها .

ومن البيّن أنّنا فى التّذييل بصدد الطّبع على القلوب وبصدد عدم السّماع الواعى من الآذان . وكأنّ الآذان تسمع ولكن دون وعي . والمعروف أنّ للآذان وظيفتين اثنتين ، السّماع المجرّد ، ويشترك الإنسان والحيوان الأعجم فى هذه الصّفة ، والسّماع الواعى وينفرد الإنسان المؤمن الخليق بهذا الاسم « الإنسان » بهذه الصّفة. والمعروف كذلك أنّ الأذن إحدى حاسّتين مهمّتين لإدراك المعرفة ، أمّا الحاسّة الأخرى فهي العين . وكما كان للأذن وظيفتان اثنتان كان للعين وظيفتان اثنتان . البصر المجرّد الّذى يدرك بالعين الحسّيّة ، ويشترك فى هذه الوظيفة الإنسان والحيوان الأعجم . والبصر الواعى الّذى نعبّر عنه بالبصيرة النّيّرة ، وينفرد الإنسان المؤمن كذلك بهذه الصّفة . والمعروف أنّ الأذن تتقدّم العين عادةً فى إدراك المعرفة والعلم ولهذا غلب تقديم السّمع على البصر فى القرآن الكريم . وحينما يطبع الله تعالى على قلوب المجرمين فهم لا يسمعون فذلك دليلٌ على أنّهم لا يبصرون . إنّهم لم يستفيدوا من الوسيلة المتقدّمة وهي الأذن فمن باب الأَوْلى والأَحْرى ألاّ يستفيدوا من الوسيلة المتأخّرة وهي العين . وكأنّ أولئك المجرمين أغمضوا أعينهم عن إبصار نور الحقّ فزادهم الله تعالى عمىً إلى عماهم ، وقد تجلّى ذلك فى طمس الله تعالى على بصائرهم وعلى قلوبهم الّتى عميت ، فهم وإن رأوا النّور الحِسّيّ بأعينهم فإنّهم لم يروا نور الحقّ بقلوبهم ولا ببصائرهم الّتى أعماها الله تعالى . وحينما أعمى الله تعالى بصائر القوم وطبع على قلوبهم كانت آذانهم لا تسمع دعوة الحقّ سماع تدبّر وإن كانت تسمع كالأنعام الصّوت دعاءً إن كان المنادى قريبًا ، ونداءً إن كان

المنادى بعيداً . وإذا كان عدم سماع القوم صوت دعوة الحقّ سماع تدبّر يعني عدم إبصارهم نور الحقّ بسبب بصائرهم الّتى أعماها الله تعالى ، فإنّ التّذييل هنا يذكّرنا بقول الحقّ جلّ وعلا فى سورة الحجّ[1] : ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فتكونَ لهم قلوبٌ يعقلون بها أو آذانٌ يسمعون بها فإنّها لا تَعْمَى الأبصار ولكن تعمى القلوب الّتى فى الصّدور ﴾ وبقول الحقّ جلّ وعلا فى هذه السّورة الكريمة[2] : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنّم كثيراً من الجنّ والإنس لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ولهم أعينٌ لا يبصرون بها ولهم آذانٌ لا يسمعون بها . أولئك كالأنعام بل هم أضلّ . أولئك هم الغافلون﴾ .

وكما جاء رسل الله تعالى الّذين قصّ الله تعالى علينا من أنبائهم على التّفصيل بالآيات البيّنات الّتى يؤمن على مثلها البشر جاء رسل الله تعالى الّذين قصّ الله تعالى علينا من أنبائهم على الإجمال فإلى .

الآيــة رقــم (١٠١)

قال تعالى : ﴿ تلك القرى نقصّ عليك من أنبائها . ولقد جاءتهم رسلهم بالبيّنات فما كانوا ليؤمنوا بما كذّبوا مِنْ قبل . كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين ﴾ .

الآية الكريمة تقرّر إصرار الكافرين على الكفر وتماديهم فى الغيّ إنّها تخاطب المصطفى ﷺ أساسًا بقصد تثبيت فؤاده عليه الصّلاة والسّلام فى مكّة المكرّمة وأفئدة الفئة المؤمنة القليلة العدد والعدّة آنذاك وتقول له عليه الصّلاة والسّلام : تلك القرى المكذّبة نقصّ عليك أيها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم من أنبائها وأخبارها .

---

(١) الآية ٤٥ .

(٢) سورة الأعراف ١٧٩ .

إنّ رسل الله تعالى قد جاءوا أقوامهم ودعوهم إلى الله تعالى فكذّبوهم ، وإنّ رسل الله تعالى قد استمرّوا يدعون أقوامهم إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة ، وقد أيّدهم الله تعالى بالآيات البيّنات والمعجزات الباهرات ، فأصرّ الكافرون على تكذيبهم و لم تغيّر الآيات البيّنات من مواقف القوم شيئًا ، وذلك دليلٌ على رسوخ الاعوجاج فى أعماقهم . وعن هذه المعانى عبّرت الآية الكريمة بالقول : ﴿ ولقد جاءتهم رسلهم بالبيّنات فما كانوا ليؤمنوا بما كذّبوا من قبل ﴾ والمعنى : ولقد جاءتهم رسلهم بالآيات البيّنات فكان ردّ الفعل عندهم على مجيء الآيات الكفر فورًا وعدم الإيمان وذلك بسبب تكذيبهم رسل الله تعالى من قبل . وبذلك تكون الباء من : ﴿ بما كذّبوا ﴾ للسّببيّة[1] وكأنّ السّيّئة الأولى قادتهم إلى السّيّئة الأخرى . ووراء ذلك يصحّ أن تكون ما موصولة وكأنّ القوم قد كفروا فى كلٍّ من المرّتين .

وحينما أصرّ القوم على الكفر أوّلاً وآخرًا وحينما انصرفوا صرف الله قلوبهم وزادها بعدًا عن الحقّ وطبع الله تعالى عليها بسبب كفر أصحابها . إنّ فى مثل هذه الطّريقة يطبع الله تعالى على قلوب الكافرين : ﴿ كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين ﴾ فعلى كفّار مكّة أن يأخذوا حذرهم وإلاّ طبع الله تعالى على قلوبهم وأعمى بصائرهم . وحينما لا يتحوّل القوم إلى الصّراط المستقيم يظلّون خارجين على ذلك الصّراط المستقيم بمعنى أنّهم فاسقون وقد بيّنت هذه الصّفة .

الآيــــة رقــم (١٠٢)

قال تعالى : ﴿ وما وجدنا لأكثرهم من عهدٍ وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين ﴾ .

فى صدر الآية تقريرٌ بأنّ ربّ العزّة ما وجد لأكثر أولئك الأقوام من عهد . ويصحّ أن يفهم من العهد فى الآية الكريمة ذلك العهد الّذى أخذه الله تعالى من بنى

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٢ / ٢٣٥ وتفسير ابن عطيّة ٦ / ٢٢ .

آدم وهم فى عالم الذّرّ والّذى أشارت إليه هذه السّورة الكريمة فى قول الحقّ جلّ وعلا[١] : ﴿ وإذ أخذ ربّك من بنى آدم من ظهورهم ذرّيّتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربّكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنّا كنّا عن هذا غافلين. أو تقولوا إنّما أشرك آباؤنا مِنْ قبل وكنّا ذرّيّةً من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾ ويصحّ أن يفهم من العهد فى الآية الكريمة أنّ المقصود به الآيات البيّنات ، والحجج البالغات ، والبراهين الدّامغات ، وما منّ الله به سبحانه وتعالى على جنس الإنسان من ملكاتٍ خاصّة يستطيع بواسطتها أن يميّز بين الحقّ والباطل والغثّ والسّمين . إنّ هذه النّعم الّتى جعلها الله تعالى فى متناول الإنسان وخصّه بها بمثابة العهد المأخوذ عليه بإفراد الله تعالى بالعبادة أو بمثابة العهد الثّانى المأخوذ عليه إثر العهد الأوّل المأخوذ عليه وهو فى عالم الذّرّ[٢] إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ أولئك الكافرين ما وجد الله تعالى لهم من عهد التزموا بالوفاء به إلاّ فى أضيق الحدود بعد أن تركوا الجحود وأفردوا بالعبادة الحقّ الموجود .

وأمّا عجز الآية الكريمة : ﴿ وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين ﴾ فإنّ المعنى وإنّا وجدنا أكثرهم لفاسقين ، وعليه تكون إن مخفّفة من الثّقيلة إنّ بدليل مجىء الّلام الفارقة بين إنّ النّاسخة وإن النّافية فى القول : ﴿ لفاسقين ﴾[٣] .

إنّ ربّ العزّة وجد أكثر أولئك الّذين دعاهم النّبيّون والمرسلون إلى الله تعالى فاسقين خارجين عن الصّراط المستقيم . وهكذا جمع أولئك المجرمون بين مجموعةٍ من الصّفات السّيّئة منها الكفر والتكذيب والاستهزاء واستعجال العذاب حمقًا والفسق .

---

(١) سورة الأعراف ١٧٢ و١٧٣ .

(٢) انظر هنا مثلاً نظم الدّرر ٨ / ١٧ .

(٣) انظر هنا مثلاً الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٥ / ٢٣ والقواعد الأساسيّة للّغة العربيّة للسّيّد أحمد الهاشميّ ١٦٦ .

[١٣]

« بَعْث الله تعالى موسى عليه السّلام بآياته التّسع وعاقبة المفسدين »

الآيــات (١٠٣ ـ ١٣٧)

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ
فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾
وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾
حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم
بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ
جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ
عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ
لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ
عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾
قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ
بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ
لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ
لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن
نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟
أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾
۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا
يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟
هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَـٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾
قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ
فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ
فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ
أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾
قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا

بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَا ۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ
﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ
فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ
نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ
ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن
يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا
مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ
أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ
فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ
بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾
فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ
يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ
أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ
لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ
ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ
فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ
ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن
كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ
إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ
هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ
فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾
وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ
ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ

الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

تحدّثت السّورة الكريمة على التّفصيل عن بعض الأمم المكذّبة وتدمير الله تعالى لها تدميرًا ، ثمّ تحدّثت على الإجمال عن بقيّة الأمم المكذّبة الكافرة . ولمّا كان وجه الشّبه كبيرًا بين ظروف الدّعوة الإسلامية فى الفترة المكّيّة وبين ظروف الدّعوة الموسويّة قبل إهلاك الله تعالى فرعون وملأه فقد كان حديث آيات هذا القسم الّذى نحن بصدده مستفيضًا عن معاناة موسى عليه السّلام وقومه بنى إسرائيل مع فرعون الطّاغية وملئه .

إنّ من صميم أهداف هذا الحديث تثبيت فؤاد المصطفى ﷺ والفئة المؤمنة القليلة العَدد آنذاك . وإنّ أولى آيات القسم تشير إلى بداية القصّة وهي بعث الله تعالى موسى عليه السّلام بآياته التّسع البيّنات إلى فرعون وملئه ، وتشير إلى نهاية القصّة وهي عاقبة المفسدين . وبعد هذا الإجمال يأتى التّفصيل . إنّ موسى عليه السّلام يقول لفرعون إنّه عليه السّلام رسولٌ من ربّ العالمين ، وإنّه عليه السّلام خليقٌ به ألاّ يقول على الله تعالى إلاّ الحقّ فالله تعالى وحده لا شريك له هو المعبود بحقّ ، وهو الذّى آتاه الآيات البيّنات فعلى فرعون بعد أن يؤمن أن يرسل مع موسى عليه السّلام بنى إسرائيل إلى أرض الشّام . وبما أنّ أولى آيات القسم قد بدأت بالحديث عن بعث الله تعالى موسى عليه السّلام فإنّ الحديث بعد ذلك استمرّ فى سرد الأحداث الّتى ترتّبت على البعث . وبذلك تجاوزت السّورة الكريمة الحديث عن موسى عليه السّلام قبل البعثة من طفولةٍ وشبابٍ وما إلى ذلك ممّا تحدّثت فيه مثلاً سورة القصص وسورة طه . ولمّا كان فرعون الطّاغية الكذّاب الّذى زعم أنّه ربّ قومه الأعلى مصمّمًا على كفره وعناده فإنّه تجاهل دعوة موسى عليه السّلام له إلى توحيد الله تعالى وصرف الحديث والاهتمام إلى آية موسى عليه السّلام البيّنة . إنّ الطّاغية يطلب من موسى عليه السّلام أن يأتى بآيته إن كان من الصّادقين أنّه رسول ربّ العالمين وأنّ الله تعالى أيّده بآيةٍ بيّنة . ولا يكتفى موسى عليه السّلام بأن يجىء بآيةٍ واحدة ولكن يجىء بآيتين اثنتين مزيد تأييدٍ من ربّ العالمين لموسى عليه السّلام:

﴿ فألقى عصاه فإذا هي ثعبانٌ مبين . ونزع يده فإذا هي بيضاءُ للنّاظرين ﴾ ويلاحظ أنّ كلاً من الآيتين الكريمتين تكتفى بأحد شقّي المعجزة . إنّ العصا يلقيها موسى عليه السّلام . والمعروف أنّه عليه السّلام يأخذها بعد ذلك . وإنّ اليد اليمنى ـ مثلاً ـ حينما ينزع موسى عليه السّلام كفّها من إبطه الّذى خفض عليه السّلام جناحه عليه فتخرج بيضاء من غير مرضٍ ولا برص ينزعها عليه السّلام مرّةً أخرى كي تعود اليد أدماء كما كانت . إنّ أخذ موسى عليه السّلام العصا مرّةً أخرى كي تعود كما كانت يسكت عنه السّياق . وإنّ نزع موسى عليه السّلام اليد مرّةً أخرى كي تعود أدماء كما كانت يسكت عنه السّياق كذلك . وإنّ هذا النّوع من السّكوت امتدادٌ لظاهرة الاختصار أو الاختزال الّتى تتّسم بها السّورة الكريمة فى العديد من جوانبها . وعلى عادة الأتباع الممسوخى الشّخصيّة تحت حكم الطّغاة يبادر بعض الملأ فى حديثهم لبعضهم الآخر إلى تكرار ذات القول الّذى جرى على لسان الطّاغية فى حديثه للملأ عن رأيهم فى موسى عليه السّلام الّذى يريد أن يخرجهم من أرضهم حسب زعم فرعون ووهمه . إنّ الملأ ليسوا سوى ببّغاواتٍ عقولها فى آذانها . وتبدو هذه الحقيقة بالمقارنة بين ما جرى على ألسنة الملأ هنا ولسان فرعون فى سورة الشّعراء مثلاً . ويبادر الملأ إلى مواصلة الحديث من حيث وقف الطّاغية . فبما أنّه زعم أنّ موسى عليه السّلام ساحرٌ مبين فإنّ السّحرة يقترحون أن يقابل فرعون السّحر بمثله ، وأن يرسل رسله من أجل جمع السّحرة من سائر أنحاء مصر . ولمّا كان السّحرة يحرصون على الرّبح المادّيّ ، ووسيلته الانتصار على موسى عليه السّلام ، فإنّهم يستوثقون من حصولهم على الأجر ويعدهم فرعون بالأجر الّذى طلبوا والجاه الّذى لم يطلبوا علمًا بأنّ الجاه عند فرعون أعظم من الأجر والمال . ويخيّر السّحرة موسى عليه السّلام بين أن يُلْقي أوّلاً وأن يلقوا هم أوّلاً ، وكانوا يتمنّون أن يلقوا هم أوّلاً بدليل مجيء الضّمير المنفصل الّذى يفيد التّوكيد فى الجزء من الآية الكريمة الّذى يخصّهم . قال تعالى : ﴿ قالوا يا موسى إمّا أن تُلْقي وإمّا أن نكون نحن الملقين ﴾ ويلهم الله تعالى موسى عليه السّلام أن يحقّق لهم

أمنيّتهم بأن يلقوا أوّلاً كي يظهر سحرهم العظيم أوّلاً وكي تظهر حجّته البالغة عليه السّلام أشدّ نصوعاً . ويلقى السّحرة حبالهم وعصيّهم فتتحوّل حيّاتٍ تسعى وأفاعي تتلوّى ملأت الوادى وركب بعضها بعضاً إلى الحدّ الّذى أدخل الفزع فى قلوب المشاهدين . وقد خشي موسى عليه السّلام أن يختلط على النّاس باطل السّحرة بالحقّ الّذى أيّده الله تعالى به لأنّ عصاه الّتى تتحوّل ثعباناً مبيناً بإرادة الله تعالى ربّما ألحق العامّة بها تمويه السّحرة لأنّ العملين شكلاً من جنسٍ واحد . ويلهم الله تعالى موسى عليه السّلام أن يلقي عصاه الّتى تحوّلت ثعباناً مبيناً ابتلع ما يأفك السّحرة ويقلبون بتمويههم ، وبذلك ثبت الحقّ وزهق الباطل وغُلِب السّحرة وانقلبوا صاغرين ومعهم فرعون وزبانيته . ولم يملك السّحرة أمام الحقّ الّذى تأكّد إلاّ أن خرّوا ساجدين لله ربّ العالمين معلنين إيمانهم وكأنّ قوىً خفيّةً هي الّتى ألقت بهم ساجدين ولهذا جاءت صيغة المبنى للمجهول : ﴿ وأُلْقِي السّحرة ساجدين ﴾ وأعلنوا إيمانهم بربّ موسى وهارون كيلا يظنّ الطّاغية أنّهم يؤمنون به وهو الحريص على تسخير كلّ شيءٍ لغاياته الخسيسة . وينكر الطّاغية على السّحرة إيمانهم قبل أن يأذن لهم ويتّهمهم بأنّ هزيمتهم النّكراء الظّاهرة وليدة مكرٍ تمّ بينهم وبين موسى عليه السّلام من أجل إخراج أهل المدينة منها والاستيلاء عليها : ﴿ فسوف تعلمون ﴾ إنّ فرعون لا يجهل أنّ موسى عليه السّلام طلب منه أن يرسل معه بنى إسرائيل إلى أرض الشّام ولكنّ الطّغاة لا يتورّعون من الكذب . ويهدّد الطّاغية مؤمنى السّحرة بتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلافٍ وتصليبهم فى جذوع النّخل أجمعين . وإنّ مجيء : ﴿ سوف ﴾ على لسان الطّأغية ربّما أفاد رغبته فى إعطاء السّحرة الفرصة الكافية كي يعدلوا عن قرارهم ويعودوا إلى صفّه ، ولكنّ مؤمنى السّحرة استسلموا لقضاء الله تعالى ، وعجبوا مِنْ إنكار الطّاغية إيمانهم وقد رأوا آيات الله تعالى البيّنات ومِنْ عدم إيمان الطّاغية ، ودعوا الله تعالى أن يفرغ عليهم الصّبر إفراغاً فكأنّه الماء الغزير الّذى يُسْكب من الدّلو العظيمة على الجسد من أعلى الرّأس إلى أخمص القدم ، وأن يتوفّاهم جلّ وعلا مسلمين لله ربّ العالمين .

وإذا كان الطّاغية قد أنهى حسابه مع مؤمنى السّحرة فإنّ البَبّغاوات من ملئه . ركبوا موجة حنق الطّاغية على موسى وقومه فهيّجوه على موسى عليه السّلام وقومه المفسدين فى الأرض بالدّعوة إلى توحيد الله تعالى وترك عبادة فرعون الطّاغية والأصنام الصّغار الّتى أذن الطّاغية بأن تُعْبَدَ معه . ويهدّد الطّاغية باستئناف عذابه القديم لبنى إسرائيل بتقتيل الأبناء الذّكور واستحياء الإناث وسوم بنى إسرائيل سوء العذاب . ويأمر موسى عليه السّلام قومه بأن يستعينوا بالله تعالى ويصبروا ، ويخبرهم بأنّ الأرض لله تعالى يورثها جلّ وعلا من يشاء من عباده : ﴿ والعاقبة للمتّقين ﴾ ويشكو بنو إسرائيل لموسى عليه السّلام بأنّهم أوذوا من قبل أن يأتيهم موسى عليه السّلام ومن بعد ما جاءهم عليه السّلام فها هوذا الطّاغية يسومهم فى المرّتين سوء العذاب . ويجيبهم موسى عليه السّلام بأنّ ربّهم جلّ وعلا عسى أن يستجيب دعاءهم ويهلك عدوّهم ويستخلفهم فى الأرض بعدهم فيعلم جلّ وعلا علم ظهورٍ كيف يعمل بنو إسرائيل . وهكذا تتأكّد المسئوليّة فى حقّ أمّة محمّد ﷺ فعليهم أن يؤمنوا ويعملوا الصّالحات فإنّهم محطّ اختبار دائمٍ فى حالتي العسر واليسر. وبعد آيتي العصا واليد يأخذ الله سبحانه وتعالى فرعون وآله بآيتي السّنين ونقصٍ من الثّمرات لعلّهم يتذكّرون ولكنّهم لم يتذكّروا . والعجيب فى القوم أنهم إذا جاءتهم الحسنة ومنها الخصب قالوا نحن نستحقّ هذا وإن تصبهم سيّئةٌ ومنها الجدب يتشاءموا بموسى عليه السّلام ومن معه . ويجهل القوم أو يتجاهلون أنّ موسى عليه السّلام والمؤمنين هم بين ظهرانَيْهِم فى حال اليسر وحال العسر ، ويجهل القوم أو يتجاهلون أنّ كفرهم سبب ما حلّ بهم بإذن الله تعالى من سوء . وكان القول : ﴿ وإن تصبهم سيّئةٌ يطّيّروا بموسى ومن معه . ألا إنّما طائرهم عند الله ﴾ سببًا لدراسة التّطيّر ولفظة الطّائر من زاوية تطوّر الدّلالة فى ضوء آي الذّكر الحكيم فى سور الأعراف والإسراء والنّمل ويس . ويصرّ القوم على كفرهم ، ويعتبرون كلّ ما جاء به موسى عليه السّلام من آيةٍ ضربًا من السّحر ، ويعلنون كفرهم بكلّ آيةٍ يأتى بها موسى عليه السّلام . ويرسل الله تعالى عليهم تمام الآيات التّسع وهي

الطّوفان والجراد والقمّل والضّفادع والدّم . لقد أغرق الطّوفان كلّ شيء . وحينما كادت الأرض تنبت من كلّ زوجٍ بهيج بفعل التّربة الجيّدة سلّط الله تعالى عليهم الجراد الّذى جعل الأرض جرداء . وحينما لجأ القوم إلى الطّعام المدّخر وبخاصّةٍ فى السّنابل تبيّنوا أنّ الله تعالى قد سلّط عليه السّوس فأكله . وحينما كانت الحاجة شديدةً إلى الطّعام سلّط الله تعالى عليهم الضّفادع الّتى تثب الواحدة منها حينما يفتح أيّ شخصٍ فاه . وحينما ظنّ القوم أنّهم يكتفون بالماء عن الطّعام ، بالشّراب عن الأكل تحوّل بإرادة الله تعالى جنس الماء دماً غضًّا طريًّا فليس الدّم جامداً كي يؤكل كما يؤكل الكبد والطّحال . وحينما وقع العذاب الشّديد على القوم طلبوا من موسى عليه السّلام أن يدعو ربّه جلّ وعلا برفع العذاب فإنّ القوم سوف يؤمنون وسوف يرسلون معه بنى إسرائيل . ويلاحظ سوء نيّة القوم فى اشتراط رفع العذاب بين يدي الإيمان ولو كانوا صادقين لآمنوا أوّلاً وما علّقوا الإيمان برفع العذاب . ويدعو موسى عليه السّلام ربّه جلّ وعلا الّذى يجيب المضطرّ إذا دعاه ويكشف السّوء . ويرفع جلّ وعلا العذاب عن القبط ، وينقض القوم الميثاق ويصرّون على الكفر ، وينتقم الله تعالى منهم بإغراقهم فى اليمّ وينجّى الله تعالى موسى عليه السّلام وبنى إسرائيل . ويورث الله تعالى بنى إسرائيل المستضعفين مشارق أرض الشّام ومغاربها الّتى بارك الله تعالى فيها من الوجهتين الدّينيّة والدّنيويّة ، وتتمّ كلمة الله تعالى الحُسْنى على بنى إسرائيل بالتّمكين لهم فى الأرض بسبب صبرهم على بلاء الله تعالى لهم ، ويدمّر الله تعالى ما كان يتقن فرعون وملؤه صنعه من المنازل والقصور ، وما كانوا يبنونه ويعرشونه من ضروب البناء وأنواع الزّروع .

الآيـــة رقـــم (١٠٣)

قال تعالى : ﴿ ثمّ بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ .

نستطيع أن نفهم من مجيء حرف العطف ﴿ ثمّ ﴾ الّذى يفيد التّرتيب مع التّراخى أنّ ثمّة فترةً زمنيّةً تفصل بين موسى عليه السّلام وبين المرسلين السّابقين ، الّذين قصّ الله تعالى من أنبائهم على التّفصيل أو الإجمال . والمعروف أنّ السّورة الكريمة قد تحدّثت مِنْ ذى قبل على التّفصيل عن كوكبةٍ من المرسلين ابتداءً بنوحٍ عليه السّلام وانتهاءً بشعيبٍ عليه السّلام ، كما تحدّثت على الإجمال عن المرسلين والنّبيّين الآخرين . ومن العلماء من نصّ على أنّ مناسبة هذه الآية لما قبلها أنّ بين موسى وشعيب عليهما السّلام مصاهرة كما حكى الله فى كتابه[1] وقد تحدّثت سورة القصص[2] بالتّفصيل عن هذه المصاهرة . وممّا يؤيّد إرادة كلّ النّبيّين السّابقين بحرف العطف : ﴿ ثمّ ﴾ القول : ﴿ من بعدهم ﴾ فى صيغة الجمع .

إنّ ربّ العزّة بعث موسى بن عمران عليه السّلام كبير أنبياء بنى إسرائيل بآياته البيّنات جلّ وعلا إلى فرعون ملك مصر آنذاك وملئه وكبراء قومه ووجهائهم وخاصّته . والآيات البيّنات تشمل آيات موسى عليه السّلام البيّنات التّسع الّتى ذكرتها سورة الأعراف هذه بالتّفصيل . والمراد بالآيات المعجزات الّتى خصّ الله تعالى بها موسى عليه السّلام . والمعروف أنّ الكتب السّماويّة السّابقة على القرآن الكريم كانت منهجًا ولم تكن معجزة ، بمعنى أنّ التّحدّي لم يكن بتلك الكتب ولكن بالمعجزات المحسوسة . والمعروف كذلك أنّ القرآن الكريم وحده هو المنهج

---

(١) انظر مثلاً البحر المحيط ٤ / ٣٥٤ ونظم الدّرر ٨ / ١٨ .

(٢) الآيات ٢٢ ـ ٢٨ .

والمعجزة معاً . وفرعون علم جنسٍ لملوك مصر[١] إذ كان مَنْ مَلَكَ مصر يقال له فرعون كنُمروذ في يونان وقيصر في الرّوم وكسرى في فارس والنّجاشي في الحبشة[٢] .

وقد نصّت الآية الكريمة على أنّ فرعون وملأه ظلموا بآيات موسى عليه السّلام . وإنّ قول الحقّ جلّ وعلا عن موسى عليه السّلام وفرعون في سورة النّمل[٣] : ﴿ وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوءٍ في تسع آياتٍ إلى فرعون وقومه . إنّهم كانوا قوماً فاسقين . فلمّا جاءتهم آياتنا مبصرةً قالوا هذا سحرٌ مبين . وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوًا . فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ إنّ قول الحقّ جلّ وعلا يجعلنا نفهم أن القول : ﴿ فظلموا بها ﴾ قد ضُمِّن معنى جحدوا وكفروا بها . وقد جاء في سورة لقمان[٤] قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ إنّ الشّرك لظلمٌ عظيم ﴾ وبذلك يكون فرعون وملؤه قد جحدوا آيات موسى عليه السّلام وكفروا بها ظلماً وعدواناً وذلك بظلم العبادة ذاتها بصرفها عن الله تعالى الّذي يستحقّها وحده دون سواه إلى من لا يستحقّها .

ومع أنّ كفر فرعون وملئه بالآيات ينصرف إلى الآيات التّسع المحسوسة في المقام الأوّل فإنّه يشمل وراء ذلك الكفر بالتّوراة الّتي قال الله تعالى في حقّها[٥] : ﴿ إنّا أنزلنا التّوراة فيها هدًى ونور ﴾ ومن الأدلّة على كفر فرعون بتوراة موسى عليه السّلام إضافةً إلى آياته التّسع الأُخر هذه الآيات الكريمات من سورة النّازعات[٦] قال تعالى : ﴿ هل أتاك حديث موسى . إذ ناداه ربّه بالواد المقدّس طوى . إذهب إلى فرعون إنّه طغى . فقل هل لك إلى أن تزكّى . وأهديك إلى ربّك فتخشى . فأراه الآية الكبرى . فكذّب وعصى . ثمّ أدبر يسعى . فحشر فنادى . فقال أنا

---

(١) نظم الدّرر ٨ / ١٨ وانظر البحر المحيط ٤ / ٣٥٥ .
(٢) البحر المحيط ٤ / ٥٥ وانظر تفسير ابن عطيّة ٦ / ٢٥ .
(٣) الآيات ١٢ ـ ١٤ .
(٤) الآية ١٣ .
(٥) سورة المائدة ٤٤ .
(٦) الآيات ١٥ ـ ٢٦ .

ربّكم الأعلى . فأخذه الله نكال الآخرة والأولى . إنّ فى ذلك لعبرةً لمن يخشى ﴾ .

وفى شقّها الآخر تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ أن ينظر بعين قلبه[1] عليه الصّلاة والسّلام ويتفكّر ويتدبّر كيف كان عاقبة المفسدين ، فرعون وملئه الّذين أهلكهم الله تعالى بالغرق . إنّ الآية الكريمة تصف فرعون وملأه تصريحاً وتلميحاً بالكفر والظّلم والإفساد . وإنّ فى أمر الله تعالى له عليه الصّلاة والسّلام بالنّظر بعين قلبه إلى عاقبة المفسدين تثبيتاً لفؤاده عليه الصّلاة والسّلام وأفئدة المؤمنين المستضعفين آنذاك فى مكّة المكرّمة على غرار قوم موسى عليه السّلام من بنى إسرائيل المؤمنين به عليه السّلام .

وبعد أن ذكرت هذه الآية الكريمة على الإيجاز بداية رسالة موسى عليه السّلام ونهاية المفسدين جاء التّفصيل فى الآيات الكريمات التّاليات . وإنّ من ألطف ما يجمل التّذكير به ولفت الانتباه إليه حديث سورة الأعراف ، وهي مكّيّة ، المستفيض عن بنى إسرائيل الّذين سوف يلتقى بهم المصطفى ﷺ والمؤمنون بعد الهجرة إلى المدينة المنوّرة .

والحقيقة أنّ الحديث المستفيض عن بنى إسرائيل فى هذه السّورة الكريمة الّتى نزلت قبل الهجرة من الأدلّة على أنّ القرآن الكريم موحًى به من ربّ العالمين إلى عبد الله تعالى المجتبى المختار محمّد بن عبد الله ﷺ .

وإذا كنّا فى هذه الآية الكريمة الثّالثة بعد المائة من السّورة الكريمة الّتى تتألّف من ستٍّ ومائتين من الآيات الكريمات نكاد نشرع فى النّصف الآخر من السّورة الكريمة فإنّ أكثر الآيات الباقيات تتحدّث عن موسى عليه السّلام ، وبنى إسرائيل قومه عليه السّلام ، وفرعون وملئه عليهم لعنة الله تعالى . ولا يخفى ما فى هذا الحديث المستفيض عن موسى عليه السّلام ورسالته ومعاناته عليه السّلام من تسليةٍ للنّبيّ محمّد ﷺ وتثبيتٍ لفؤاده عليه الصّلاة والسّلام بسبب قوّة الشّبه بين الرّسولين فى الكثير

---

(١) تفسير الطّبريّ ٩ / ٩ .

من المجالات وفى مقدّمتها أنّ كلاً من الرّسولين الكريم قد اصطفاه الله تعالى بكتابٍ سماويّ . والآن إلى .

الآيـــة رقـــم (١٠٤)

قال تعالى : ﴿ وقال موسى يا فرعون إنّى رسولٌ من ربّ العالمين ﴾ .

جاء فى الآية الكريمة الحادية والسّتّين من السّورة الكريمة على لسان نوحٍ عليه السّلام والآية الكريمة السّابعة والسّتّين على لسان هودٍ عليه السّلام النّصّ على أنّ كلاً منهما رسولٌ من ربّ العالمين . وإنّ هذا القول ذاته نتبيّنه هنا على لسان موسى عليه السّلام فى مخاطبته فرعون مصر الطّاغية . ومع أنّ فرعون الطّاغية لا يكتفى بارتكاب الذّنب الّذى لا يغفره الله تعالى وهو الشّرك على نحو ما يُفْهَم من الآية الكريمة السّابعة والعشرين بعد المائة من السّورة الكريمة . قال تعالى : ﴿ وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك﴾ إنّما ينحطّ عن هذا الدّرك إلى مثل هذا الزّعم كما جاء فى سورة القصص[1] : ﴿ ما علمت لكم من إلهٍ غيرى ﴾ وإلى مثل هذا الزّعم الّذى يفوقه سوءًا وقبحاً كما جاء فى سورة النّازعات[2] : ﴿ أنا ربّكم الأعلى ﴾ فإنّ موسى عليه السّلام ينادى فرعون بهذا الاسم الّذى يعتبر أحبّ الأسماء إليه . إنّ موسى عليه السّلام ينادى الطّاغية بالقول : ﴿ يا فرعون ﴾ دليلاً على الخلق العظيم الّذى فطر الله تعالى عليه المصطفَيْن من النّبيّين . ثمّ إنّ هذه الطّريقة فى النّداء امتثالٌ من موسى عليه السّلام لقول الحقّ جلّ وعلا له ولأخيه هارون عليهما السّلام كما جاء فى سورة طه[3] : ﴿ فقولا له قولاً ليّنًا لعلّه يتذكّر أو يخشى ﴾ وقد عرفنا أنّ كلّ من ملك مصر آنذاك كان يسمّى فرعون . فالفراعنة فى مصر كالنّمارذة فى اليونان وقيصر فى الرّوم

---

(١) الآية ٣٨ . (٢) الآية ٢٤ . (٣) الآية ٤٤ .

وكسرى فى فارس والنّجاشيّ فى الحبشة[١] .

وعلى الرّغم من لطف النّداء : ﴿ يا فرعون ﴾ ولين القول : ﴿ إنّى رسولٌ من ربّ العالمين ﴾ فليس موسى عليه السّلام سوى واحدٍ فى موكبٍ الرّسل الكرام من ربّ الأنام ، فإنّ ردّ الفعل عند فرعون كان عنيفاً ومزمجرًا لأنّ فحوى دعوة موسى عليه السّلام يصطدم مع أكذوبتي فرعون اللّتين يقال إنّ بينهما أربعين سنة[٢] فليس فرعون الطّاغية الّذى يكذب ويكذب سوى عبدٍ لله تعالى ربّ العالمين الّذى أرسل موسى عليه السّلام بدعوة الإسلام لله ربّ العالمين . جاء النّصّ على إسلام النّبيّين الّذين يحكمون بالتّوراة للّذين هادوا وعليهم فى قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة المائدة[٣] : ﴿ إنّا أنزلنا التّوراة فيها هدًى ونور . يحكم بها النّبيّون الّذين أسلموا للّذين هادوا والرّبّانيّون والأحبارُ بما استُحفِظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تَخْشَوا النّاس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ .

وإذا كانت هذه الآية الكريمة تثبت كذب فرعون ولهذا ثارت ثائرته فإنّ الآية الكريمة التّالية تثبت صدق موسى عليه السّلام فإلى .

الآيــة رقــم (١٠٥)

قال تعالى : ﴿ حقيقٌ على ألاّ أقول على الله إلاّ الحقّ . قد جئتكم ببيّنةٍ من ربّكم فأرسل مَعِيَ بنى إسرائيل ﴾ .

لفظة حقيق ذات علاقةٍ بالحقّ . وأصل الحقّ المطابقة والموافقة[٤] وبشأن القول على لسان موسى عليه السّلام : ﴿ حقيقٌ على ألاّ أقول على الله إلاّ الحقّ ﴾ ثمّة

---

(١) تفسير ابن عطيّة ٦ / ٢٥ . (٢) انظر مثلاً تأمّلات فى سورة النّازعات للمؤلّف ٦٢ .

(٣) الآية ٤٤ .

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ « حقّ » ١٢٥ وانظر نظم الدّرر ٨ / ٢٠ .

قراءتان . يقول على سبيل المثال الطّبريّ[١] : « اختلفت القرّاء فى قراءة قوله : ﴿ حقيقٌ على ألاّ أقول على الله إلاّ الحقّ ﴾ . فقرأه جماعةٌ من قرّاء المكّيّين والمدنيّين والبصرة والكوفة : حقيقٌ على ألاّ أقول ، بإرسال الياء من على وترك تشديدها ، بمعنى أنا حقيقٌ بألاّ أقول على الله إلاّ الحقّ . فوجّهوا معنى على إلى معنى الباء كما يقال : رميت بالقوس وعلى القوس وجئت على حالٍ حسنةٍ وبحالٍ حسنة[٢] وكان بعض أهل العلم بكلام العرب يقول : إذا قرئ ذلك كذلك فمعناه : حريصٌ على ألاّ أقول إلاّ بحقّ . وقرأ ذلك جماعةٌ من أهل المدينة : ﴿ حقيقٌ علىّ ألاّ أقول ﴾ ، بمعنى واجبٌ علىّ ألاّ أقول[٣] وحقٌّ علىّ ألاّ أقول » ومن العلماء من ذهب إلى أنّ القول: ﴿ حقيقٌ على ألاّ أقول على الله إلاّ الحقّ ﴾ أي جديرٌ بذلك وحريٌّ به[٤] ويقول ابن عطيّة[٥] : « وقرأ نافع وحده علىّ بإضافة على إليه » .

إنّ موسى عليه السّلام يقرّر أنّه حريٌّ به عليه السّلام وجديرٌ وخليق[٦] ألاّ يقول على الله تعالى إلاّ الحقّ وذلك حينما يقول لفرعون إنّه عليه الصّلاة والسّلام رسولٌ من ربّ العالمين . وبذلك يكون القول هنا تبييناً للآية الكريمة السّابقة .

ولمّا كان ربّ العزّة قد أيّد موسى عليه السّلام بآيتيه الكبريين العصا واليد فإنّ موسى عليه السّلام يؤيّد قوله بالإشارة إلى الحجّة البيّنة والآية الواضحة الّتى أيّده الله تعالى بها والّتى جاء بها فرعون وملأه من ربّ العالمين . جاء مثلاً فى سورة طه[٧] قوله تعالى : ﴿ وما تلك بيمينك يا موسى . قال هي عصاي أتوكّأ عليها وأهشّ بها على غنمى ولي فيها مآرب أخرى . قال ألقها يا موسى . فألقاها فإذا هي حيّةٌ تسعى . قال خذها ولا تَخَفْ سنعيدها سيرتها الأولى . واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوءٍ آيةً أخرى . لنريك من آياتنا الكبرى ﴾ .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٩ / ١٠ . (٢) انظر معاني القرآن للفرّاء ١/٣٨٦.
(٣) انظر معاني القرآن للأخفش ٢ / ٣٠٦ . (٤) تفسير ابن كثير ٢ / ٢٣٥ .
(٥) تفسير ابن عطيّة ٦ / ٢٥ والبحر المحيط ٤ / ٣٥٥ . (٦) البحر المحيط ٤ / ٣٥٥ .
(٧) الآيات ١٧ ـ ٢٣ .

ولّما كانت مهمّة موسى عليه السّلام ، إضافةً إلى الدّعوة إلى توحيد الله تعالى ، الخروج بقومه بنى إسرائيل الّذين بعثه الله تعالى فيهم ، من أرض مصر الّتى يسومهم فيها فرعون سوء العذاب إلى الشّام البلد الّذى بارك الله تعالى فيه دينيًّا ومادّيًا فإنّ موسى عليه السّلام يصرّح فى مخاطبته فرعون الطّاغية بهذا الطّلب . قال تعالى على لسان موسى عليه السّلام : ﴿ قد جئتكم ببيّنةٍ من ربّكم فأرْسِلْ معي بنى إسرائيل﴾ يقول ابن عطيّة[1] : « البيّنة هنا إشارةٌ إلى جميع آياته ، وهي على المعجزة هنا أدلّ» وقد عرفنا أنّ موسى عليه السّلام قد أكرمه الله تعالى بآيتي العصا واليد .

وعلى عادة الطّغاة يرفض فرعون رسالة موسى عليه السّلام . ولّما كانت رسالة موسى عليه السّلام تعتمد على آيةٍ بيّنةٍ من الله تعالى ، وقد صرّح موسى عليه السّلام بذلك ، ولّما كان دحض الآية وسيلةً قويّةً لرفض الرّسالة فقد ترك فرعون ـــ إلى حين ـ الرّسالة واتّجه إلى الآية فإلى .

الآيـــة رقـــم (١٠٦)

قال تعالى : ﴿ قال إن كنت جئت بآيةٍ فأت بها إن كنت من الصّادقين ﴾ .

فى سورة الأعراف الكريمة آياتٌ كريمات تجمع فى نسق كلاًّ من جملة جاء وجملة أتى . ومنها هذه الآية الكريمة السّادسة بعد المائة والآية الكريمة التّاسعة والعشرون بعد المائة فى هذا القسم ذاته المتعلّق بموسى عليه السّلام وقومه وفرعون الطّاغية وملئه . قال تعالى : ﴿ قالوا أوذينا مِنْ قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا . قال عسى ربّكم أن يهلك عدوّكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون ﴾ ويستنتج من هاتين الآيتين الكريمتين ومن سائر أي الذّكر الحكيم المماثلة أنّ جملة أتى لا تستعمل فى القرآن الكريم إلاّ دليلاً على البعد الزّمانيّ أو المكانيّ أو النّفسيّ ،

(١) تفسير ابن عطيّة ٦ / ٢٧ .

وأنّ جملة جاء لا تستعمل فى القرآن الكريم إلاّ دليلاً على القرب الزّمانيّ أو المكانيّ أو النّفسيّ . وقد جاء فى إحدى الآيتين الكريمتين تقديم جملة : ﴿ جئت ﴾ وتأخير: ﴿ فأت بها ﴾ وجاء فى أخراهما تقديم : ﴿ من قبل أن تأتينا ﴾ وتأخير : ﴿ ومن بعد ما جئتنا ﴾ .

وبشأن الآية الكريمة الّتى نحن بصددها يقول فرعون : إن كنت يا موسى قد جئت فعلاً بآيةٍ هي قريبةٌ منك وفى حوزتك وتحت طوعك ورهن إشارتك فأت بها من مكانها النّائى القصيّ فإنّى شخصيًّا لا أرى ذلك وأستبعده وأحضرها فى مكانى كي أبصرها إن كنت من الصّادقين فى زعمك أنّك جئت بآيةٍ بيّنةٍ من ربّك، ولست من الكاذبين . ومن البيّن أنّ فرعون لا يستبعد فقط إتيان موسى عليه السّلام بالآية إنّما يتمنّى فى أعماقه ألاّ يكون موسى عليه السّلام من الصّادقين وعليه تفيد جملة : ﴿ فأت بها ﴾ البعد المكاني والبعد المعنويّ أو النّفسيّ[1]

ويقرن موسى عليه السّلام الفعل بالقول : وتتضمّن آيتيه الكبريين هاتان .

الآيتان رقم (١٠٧ و١٠٨)

قال تعالى : ﴿ فألقى عصاه فإذا هي ثعبانٌ مبين . ونزع يده فإذا هي بيضاء للنّاظرين ﴾ .

تشير الآية الكريمة الأولى إلى أولى المعجزات الّتى خصّ الله تعالى بها موسى عليه السّلام وهي معجزة العصا . وتشير الآية الكريمة الأخرى إلى المعجزة الثّانية وهي معجزة اليد . وحينما نتأمّل ما جاء فى سورة طه عن معجزة العصا نتبيّن أنّها ذات شقّين ، إلقاءٌ وأخذ . قال تعالى[2] : ﴿ وما تلك بيمينك يا موسى . قال هي

---

(١) درسنا هذه الظّاهرة بإسهاب فى أثناء دراسة الآية رقم ٩ من سورة الحاقة فى كتابنا : تأمّلات فى سورة الحاقّة ٤٩ ـ ٥٨ وانظر الآية الكريمة ٥٣ من سورة الأعراف .

(٢) سورة طه ١٧ ـ ٢١ .

عصاي أتوكّأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى . قال ألقها يا موسى . فألقاها فإذا هي حيّةٌ تسعى . قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى﴾ فكأنّ الآية الكريمة من سورة الأعراف تكتفى بالحديث عن الشّقّ الأول من آية العصا ، شقّ الإلقاء ، أمّا أخذ العصا فإنّها تسكت عنه ، وإنّ الخيال ليذهب بعيداً فى تصوّر خوف فرعون وملئه من ذلك الثّعبان المبين عن حقيقته ، وتلك الحيّة الّتى تسعى . ونستطيع أن نفهم أنّ ذلك الثّعبان الّذى يسعى قد اتّخذ هيئة أضخم الثّعابين حجمًا ، وأقبحها شكلاً ، وأفتكها سمّا . ونستطيع بشأن الشّقّ الآخر من الآية أن نفهم أنّ موسى عليه السّلام قد أخذ الثّعبان أو الحيّة . وبمجرد أخذه عليه السّلام لها عادت عصًا مرّةً أخرى . وكانت العصا فى هيئة الثّعبان قد أدّت دورها فى حقّ فرعون وملئه . ونستطيع أن نفهم كذلك أنّ موسى عليه السّلام حينما أخذ الحيّة هذه المرّة لم يخف لأنّ له من ذى قبل تجربةً مع العصا بإذن الله تعالى مع نهيه عليه السّلام عن الخوف لأنّ الله تعالى سيعيدها سيرتها الأولى كما تبيّن من آيات سورة طه السّابقة وغيرها من الآيات الكريمات[1] .

وإذا كانت معجزة العصا ذات شقّين اكتفت آية سورة الأعراف بذكر شقّها الأوّل فإنّ معجزة اليد ذات شقّين كذلك واكتفت آية سورة الأعراف بذكر شقّها الأوّل على نحو ما يتبيّن من هذه الآية الكريمة من سورة القصص[2] : ﴿ اُسْلُكْ يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوءٍ واضمم إليك جَناحَكَ من الرَّهْب فذانك برهانان من ربّك إلى فرعون وملئه . إنّهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ إنّ آية سورة القصص الكريمة تأمر موسى عليه السّلام بأن يدخل يده اليُمْنى غالباً فى جيبه والفتحة من القميص الّتى يدخل فيها موسى عليه السّلام رأسه حينما يريد أن يرتدي القميص أو الثّوب . والجيب من الجَوْب بمعنى القطع[3] جاء فى سورة

---

(١) كالآية رقم ١٠ من سورة النّمل و٣١ من سورة القصص .

(٢) الآية ٣٢ . (٣) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « جوب » ١٠٢ .

الفجر[١] قوله تعالى : ﴿ وثمودَ الّذين جابوا الصّخر بالواد ﴾ أي قطعوا الصّخر واتّخذوه بيوتاً بوادى القرى حيث ديار ثمود الّتى تُسَمّى بالعُلا أو مدائن صالح . قال تعالى[٢] : ﴿ وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين ﴾ بمعنى حاذقين[٣] إنّ آية سورة القصص الكريمة تأمر موسى عليه السّلام بأن يدخل كفّ يده فى طوق قميصه[٤] حتّى تصل إلى إبطه ويضمّ عليها ، أي على كفّ يده جناحه أي جانبه[٥] الأيسر تحت العضد ، وأن يخرج يده بعد ذلك فتخرج بيضاء تضىء كشعاع الشّمس[٦] من غير برصٍ ولا مرض[٧] وكان موسى فيما ذُكِر لنا آدم[٨] يميل إلى السُّمرة .

فإذا أراد موسى عليه السّلام ليده البيضاء من غير سوءٍ أن تعود أدماء كما كانت عليه أن يعيد الكرة وأن يسلك يده البيضاء ويدخلها فى جيبه حتى تصل إلى إبطه تحت عضده ويده وجانبه وأن يضمم إليه جناحه ويضغط على كفّ يده بجانبه وأن يخرج يده بعد ذلك فتخرج أدماء كما كانت ، وتعود بإرادة الله تعالى سيرتها الأولى . والآية الكريمة تنصّ على الرَّهْب بمعنى الفزع[٩] والخوف الحاصل لموسى عليه السّلام ابتداءً من إضاءة اليد[١٠] .

إنّ كلّ هذه المعاني الغزيرة عبّر عنها نصف الآية الكريمة فى أسلوب القرآن الكريم المعجز الّذى يتّسم هنا ببلاغة الحذف وإعجازه . إنّنا بصدد عمليّتين اثنتين يقوم بهما موسى عليه السّلام كي تتحوّل اليد (أو الكفّ) بيضاء مِنْ غير سوء وكي تعود أدماء مرّةً أخرى . وإنّ المحذوف بشأن كلٍّ من العمليّتين دلّ عليه المذكور دون الإحساس بالحاجة إلى ذلك المحذوف لإدراك كامل المعنى لأنّ المذكور المقابل يدلّ عليه .

---

(١) الآية ٩ .
(٢) سورة الشّعراء ١٤٩ .
(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « فره » ٣٧٩ .
(٤) انظر مثلاً الجلالين فى تفسير الآية الكريمة .
(٥) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « جنح » ١٠٠ .
(٦) الجلالين . (٧) تفسير ابن كثير ٢ / ١٣٦ (٨) تفسير الطّبريّ ٩ / ١١ .
(٩) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « رهب » ٢٠٤ . (١٠) انظر مثلاً الجلالين .

وكي نستدلّ على المحذوف بالمذكور فى الإمكان ذكر الشّقّ من الآية الكريمة ووضع المحذوف بين أقواس .

﴿ اسلك يدك [الأدماء] فى جيبك [واضمم إليك جناحك وأخرجها] تخرج بيضاء من غير سوء ﴾ .

[واسلك يدك البيضاء فى جيبك] ﴿ واضمم إليك جناحك من الرّهب ﴾ [وأخرجها تخرج أدماء] .

إنّ نسبة المحذوف تكاد تصل إلى نسبة المذكور فكأنّ المعنى الكامل تمّ التّعبير عنه بنصف الألفاظ فسبحان الله تعالى الكبير المتعال الّذى لا يعجزه شيءٌ فى الأرض ولا فى السّماء .

والآيتان الكريمتان هنا هما كذلك الآيتان الكريمتان الثّانية والثّلاثون والثّالثة والثّلاثون من سورة الشّعراء . وثمّة بعض تفصيلٍ لما أُجْمِلَ فى سورة الأعراف . قال تعالى[1] : ﴿ قال لئن اتّخذت إلهًا غيرى لأجعلنّك من المسجونين . قال أو لو جئتك بشيءٍ مبين . قال فأت به إن كنت من الصّادقين . فألْقَى عصاه فإذا هي ثعبانٌ مبين . ونزع يده فإذا هي بيضاءُ للنّاظرين ﴾ .

وبشأن جملة : ﴿ فألقى عصاه ﴾ نتبيّن عفويّة الإلقاء المنبعثة عن الثّقة المطلقة من موسى عليه السّلام رسول ربّ العالمين فيما يأتى من إلقاءٍ للعصا وذلك على غرار إلقائه لها أوّل مرّة بأمر ربّه جلّ وعلا حينما كان عليه السّلام بالواد المقدّس طوى على نحو ما بيّنت الآية الكريمة الثانية عشرة من سورة طه . وبقدر اطمئنان موسى عليه السّلام الّذى دلّت عليه جملة : ﴿ ألقى ﴾ كان هلع فرعون لتحوّل العصا المفاجئ ثعباناً مبيناً . وقد دلّت إذا الفجائيّة[2] فى القول : ﴿ فإذا هي ثعبانٌ مبين ﴾ على هول المفاجأة فى حقّ فرعون وملئه وعلى جزعهم وهلعهم لتحوّل العصا وهي نوعٌ من الخشب حيّةً تسعى بإرادة الله تعالى القادر على كلّ شيء . إنّ الخشب تحوّل بإرادة الله تعالى حيوانًا ذا روحٍ يقوم بما أراد الله تعالى أن يقوم به .

---

(١) سورة الشّعراء ٢٩ ـ ٣٣ . (٢) الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٥ / ٢٧ .

وليس بخافٍ أنّ معجزة موسى عليه السّلام من جنس ما نبغ فيه قومه، أعنى السّحر.

وبشأن جملة ﴿ نزع ﴾ فى الآية الكريمة الأخرى نستطيع أن نفهم المجهود المحدود الّذى يبذله موسى عليه السّلام حينما يخرج عليه السّلام كفّ يده من إبطه الّذى ضمّ إليه جناحه وهبط عليه أو ضغط عليه بجانبه لأنّ جملة ﴿ نزع ﴾ تفيد جذب الشّىء من مقرّه كنزع القوس عن كبده[1] وذلك يوحى بشىءٍ من قوّةٍ مبذولةٍ فى أثناء النّزع وذلك كنزع الدّلو من البئر مثلاً وكنزع الملائكة غرقًا أرواح الكافرين ، أي بشدّةٍ وعنف ، على نحو ما بيّنت الآية الكريمة الأولى من سورة النّازعات[2] جاء فى لسان العرب[3] : « وأغرق النّازع فى القوس أي استوفى مدّها » .

وكما كانت مفاجأة فرعون وملئه كبيرةً لتحوّل الخشب الجماد بإرادة الله تعالى حيوانًا يسعى ، آيةً لموسى عليه السّلام من ربّ العالين ، كانت مفاجأة فرعون وملئه لتحوّل اليد الأدماء لموسى عليه السّلام المخلوق من طينٍ ومن ماء شيئاً آخر مضيئاً كالشّمس المصدر للطّاقة أو الحرارة من غير برصٍ ولا مرض . وإذا كانت العصا كلّها قد تحوّلت ثعبانًا فإنّ كفّ يد موسى هي وحدها الّتى تحوّلت بيضاء للنّاظرين دون سائر اليد وسائر الجسد . وإنّ تحوّل الكفّ وحدها أو بعض اليد شيئًا آخر ، وربّما كان مضادًّا كتولّد الضّياء من الطّين وليس من النّار ، ربّما كان آكد فى مجال الآية أو المعجزة .

ومن البيّن أنّ كلاًّ من آية العصا وآية اليد يراها النّاظرون جميعًا وليس فرعون وحده وليس فرعون ومعه ملؤه وحدهم .

وإذا كان الشّبه كاملاً بين الآيتين الكريمتين هنا والآيتين الكريمتين من سورة الشّعراء فإنّ الشّبه كبير بين الآيات الكريمات التّاليات فى كلٍّ من سورة الأعراف وسورة الشّعراء . وهذه هي .

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ « نزع » ٤٨٧ .

(٢) انظر مثلاً كتابنا : تأمّلات فى سورة النّازعات ١٨ و١٩ الطّبعة الثالثة . (٣) « غرق » .

الآيـات رقـم (١٠٩ ـ ١١٤)

قال تعالى : ﴿ قال الملأ من قوم فرعون إنّ هذا لساحرٌ عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون . قالوا أَرْجِهْ وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين . يأتوك بكل ساحرٍ عليم . وجاء السّحرة فرعون قالوا إنّ لنا لأجراً إن كنّا نحن الغالبين . قال نعم وإنّكم لمن المقرّبين ﴾ .

إنّ بين هذه الآيات السّتّ الكريمات من سورة الأعراف وبين هذه الآيات التّسع الكريمات التّاليات من سورة الشّعراء وجه شبه مع زيادةٍ فى بعض التّفاصيل . قال تعالى[1] : ﴿ قال للملأ حوله إنّ هذا لساحرٌ عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون . قالوا أرجه وأخاه وابْعَثْ فى المدائن حاشرين . يأتوك بكلّ سحّارٍ عليم . فجُمِعَ السّحرة لميقات يومٍ معلوم . وقيل للنّاس هل أنتم مجتمعون . لعلّنا نتّبع السّحرة إن كانوا هم الغالبين . فلمّا جاء السّحرة قالوا لفرعون أئنّ لنا لأجْرًا إن كنّا نحن الغالبين . قال نعم وإنّكم إذن لمن المقرّبين ﴾ .

إنّ أوّل ما يلفت الانتباه فى مجال المقارنة بين الآيات الكريمات فى السّورتين الكريمتين أنّ آيات سورة الشّعراء تقرّر أنّ الحوار تمّ أوّلاً بين فرعون وملئه فى حين تقرّر آيات سورة الأعراف أنّ الحوار تمّ بين بعض الملأ وبعضهم الآخر ثمّ خلص الحديث متّجهًا إلى فرعون . جاء فى سورة الشّعراء القول : ﴿ قال للملأ حوله إنّ هذا لساحرٌ عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون . قالوا أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين . يأتوك بكلّ سحّارٍ عليم ﴾ وجاء فى سورة الأعراف القول : ﴿ قال الملأ من قوم فرعون إنّ هذا لساحرٌ عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون . قالوا أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين . يأتوك بكلّ ساحرٍ عليم ﴾ .

---

(١) سورة الشّعراء ٣٤ ـ ٤٢ .

ومن الطّبيعيّ أن يكون فرعون الطّاغية هو القائل ذلك الكلام أوّلاً وأنّ الملأ كرّروا قوله بعد ذلك . فعلام يدلّ ذلك ؟ يدلّ ذلك على أنّ الملأ ليسوا سوى ببّغاوات ، شأنهم فى ذلك شأن كلّ البَبّغاوات فى كلّ زمانٍ ومكانٍ حينما يكون ثمّة حكمٌ بغير ما أنزل الله تعالى ، واستبدادٌ بالرّأي ، وطغيانٌ فى استعمال السّلطة ، وحينما يتحقّق فى الحكّام الظّالمين قول الحقّ جلّ وعلا[1] : ﴿ لا يرقبون فى مؤمنٍ إلاّ ولا ذمّة ﴾ عن ابن عبّاس قال : الإلّ يعنى القرابة ، والذّمّة العهد[2] وإنّ الآية الكريمة الّتى تصوّر أبلغ تصوير انعدام شخصيّة الملأ واندثارها واختفاءها فى شخصيّة فرعون الطّاغية الآية الكريمة الرّابعة والخمسون من سورة الزّخرف . قال تعالى : ﴿ فاستخفّ قومه فأطاعوه إنّهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ .

وقد انحطّ انعدام شخصيّة الملأ إلى الدّرك الّذى يتنافسون معه فى ترداد الكلام السّخيف الّذى تفوّه به فرعون الطّاغية الّذى عطّل فكره وانقاد لهواه فجرى على لسانه فى حقّ موسى عليه السّلام الكلام الّذى يعلم الطّاغية فى أعماقه علم اليقين أنّه كذب . وهكذا يعطّل الملأ عقولهم وكلّ ملكاتهم ويكرّرون بألسنتهم ما حفظته عقولهم الّتى فى آذانهم شأن الببّغاوات ، وليس ما حفظته عقولهم الّتى فى رءوسهم فقد عطّلوا تلك العقول عن أيّ عملٍ فى غير الشّرور والآثام .

إنّ الآية الكريمة الأولى تقرّر أنّ الملأ من قوم فرعون بمعنى الخاصّة والأشراف ، أعنى الأشرار ، يجىء على لسانهم فى صيغة التّوكيد فى حقّ موسى عليه السّلام رسول ربّ العالمين : ﴿ إنّ هذا لساحرٌ عليم ﴾ والسّحر فى أوّل معانيه الخداع ويطلق على تخييلاتٍ لا حقيقة لها[3] إنّ الملأ يصفون موسى عليه السّلام بما وصفه فرعون الطّاغية : ﴿ لساحرٌ عليم ﴾ وليس بخافٍ أنّ ﴿ عليم ﴾ على وزن صيغة المبالغة فعيل . والمعنى أنّ موسى عليه السّلام فى زعمهم قد بلغ فى فنّ السّحر

---

(١) سورة التّوبة ١٠ . (٢) تفسير الطّبريّ ١٠ / ٦٠ وتفسير ابن كثير ٢ / ٣٣٨ .

(٣) انظر مثلاً مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « سحر » ٢٢٦ .

والشّعبذة شأوًا بعيداً تجاوز معه مستوى العالم إلى العليم فى فنّ الخداع : ﴿ كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذبًا ﴾ .

ومع أنّ موسى عليه السّلام بعد دعوته إلى توحيد الله تعالى قد طلب من فرعون أن يرسل معه قومه بنى إسرائيل إلى الشّام فإنّ فرعون وملأه يزعمون أنّ موسى عليه السّلام يريد أن يخرج القبط من أرضهم فى مصر فما أمرهم ! جاء فى سورة الشّعراء على لسان فرعون القول : ﴿ يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون ﴾ بزيادة القول : ﴿ بسحره ﴾ وجاء فى سورة الأعراف على لسان الملأ القول : ﴿ يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون ﴾ بحذف القول : ﴿ بسحره ﴾ الّذى جاء فى سورة الشّعراء . أليس الملأ يكرّرون القول الّذى يجرى على لسان الطّاغية دائماً ؟ بلى . وما دام الطّاغية قد عيّن الوسيلة الّتى يتذرّع بها موسى عليه السّلام لإخراج الملأ من أرضهم فلماذا يكرّر البّغاوات ذكر الوسيلة ما دامت الوسيلة مسألةً مسلّماً بها لدى أولئك البّغاوات ؟ إنّ مسألة السّحر فى حقّ موسى عليه السّلام قد أفتى فيها ، فى نظر الملأ ، فرعون ، فهي مسألةٌ قد صدر بحقّها حكم الطّاغية فبقي على البّغاوات إذن أن يركّزوا على التّهمة الخطيرة برغبة موسى عليه السّلام فى إخراجهم من أرضهم مع أنّ موسى عليه السّلام هو الّذى طلب أن يخرج ببنى إسرائيل من مصر . وإذا كان فرعون الطّاغية الدّاهية قد جاء على لسانه فى سورة الشّعراء خطابًا للملأ القول كما جاء فى الآية الكريمة : ﴿ فماذا تأمرون ﴾ فإنّ البّغاوات يردّدون من باب الغباء وانعدام الشّخصيّة السّؤال ذاته فى خطاب بعضهم بعضاً كما جاء فى آية سورة الأعراف: ﴿ فماذا تأمرون ﴾ إنّ الملأ يوهم بعضهم بعضاً بترداد سؤال الطّاغية : ﴿ فماذا تأمرون ﴾ أنّهم محطّ احترام الطّاغية واهتمامه ، وأنّ لهم شأنًا كبيراً بدليل أنّ بعضهم يطرح السّؤال ذاته على بعضهم الآخر . وهذا التّرداد للأقوال وللسّؤال من الأدلّة على معنى الآية الكريمة من سورة الزّخرف فى قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ فاستخفّ قومه فأطاعوه إنّهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ .